

السنة الثامنة - العدد ٨٨ - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

نور من القرآن

في طريق الدعوة والدعاة

بقلم

د. محمد الحسين أبو سم



تصدرها رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

دَعْوَةُ الْجَوِّ

السنة الثامنة - العدد ٨٨ - ٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

نور من القرآن

في طريق الدعوة والدعاة

بقلم

د. محمد الحسين أبو سم

تصدرها رابطة العالم الاسلامي - مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحمن

إهداء ودعاء

إلى نَبْعِي الحنان اللذين قدَّما لي أبنع ثمار الإيمان ، حيث
وجَّهاني إلى حفظ القرآن ، ودراسة علومه في معاهد مختلفة ،
إلى أن جاءت هذه الثمار التي أهديتها لهما في شكل دعاء وأمل ،
ورجاء وتضرُّع إلى الله أن يتفَضَّل عليهما بفيضٍ من رحمته :
«رب ارحمهما كما ربياني صغيراً» .

كما أهدى هذه الثمار إلى مُعلِّميَّ وأساتذتي الأجلاء ؛ بدءاً
بمدرسة تحفيظ القرآن الكريم ، ومروراً بالمدرسة الابتدائية ،
والمعاهد العلمية ، ثم جامعة أم درمان الإسلامية ، وانتهاءً
بجامعات مصر العتيقة .

وأرجو أن أكون بهذا الإهداء قد وفيت بعض ما علىَّ من
دينٍ لوالديَّ وأساتذتي الأجلاء ، آملاً من كل قارئ هذه
القبسات من نور القرآن الكريم أن يدعُو لي ولهم وللمؤمنين
والمؤمنات ؛

«رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين
والمؤمنات» .

محمد الحسين أبوسم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله ، نبينا محمد بن عبدالله ، وبعد :

فإذا كان خير ما يخدم الإسلام هو التعريف به في أمانة وتجرد وموضوعية ، فإن خير ما يخدم القرآن الكريم وينفع الناس به هو التعريف به ، ومحاولة اكتناؤه أسراراً ، ببيان أهدافه ومراميهِ ووسائله في الدعوة إلى مقاصده .

واعتقد أن هذا البيان وذاك التعريف هما خير مدخل للعمل في مجال الدعوة إلى الله ؛ إذ سيكونان نكأةً للقبسات المضئنة والتي سنستمدّها من القرآن الكريم بإذن الله .

ومن ثم رأيت أن أجعل عنوان هذا البحث :

«نور من القرآن الكريم في طريق الدعوة والدعاة»

وذلك تمثيلاً مع قول الله عز وجل : ﴿لقد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾^(١) .

وهداية القرآن الكريم ليست مقصورة على قوم دون قوم ، أو فئة دون فئة ولكنها للإنسانية جمعاء ، إذا آمنت به وترسمت خطاه ، ومن ثم كان استبعادى للتعريف الذى ذكره المناطقة للقرآن ، وكانت دعوتى إلى التعريف بالقرآن تعريفاً يكشف عن مناحى هذه الهداية ويوضح صلة القرآن الكريم بجميع جوانب الحياة ، وليس التعريف الذى يحصره في دائرة الذهنية أو دائرة المطارحات الفكرية ثم التلاوة والترديد ، لأن القرآن كتاب هداية

(١) المائدة : ١٥ - ١٦ .

لجميع البشر .

أما اقتصارنا في عنوان هذا البحث على الدعاة فليس معناه التمييز أو الإخراج لفئة أو فئات والاقتصار على فئة أو فئات ، ولكن قصدنا من ذلك الإشارة إلى أن كل مؤمن إنَّما هو داعية إلى الله ، أو هكذا يجب أن يكون ؛ ذلك لأن كل مؤمن لا يخلو من مسئولية ، وذو المسئولية راعٍ وكل راعٍ مسئولٌ عن رعيته ، وأولى تلك المسئوليات مسئولية النفس وجهادها ، أو مجاهدتها وجهاد هواها ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ ^(٢) ثمَّ مسئولية الأهل والعشيرة وجهاد هوى نفوسهم الأمارة بالسوء ، قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ^(٣) وقال الشاعر :

أبدأ بنفسك وأنها عن غيِّها

فإذا انتهت فأنْتَ حكيم

وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو لب لباب الدعوة إلى الله ، ومن ثمَّ جاء الحديث عن هذا الجانب في أكثر من موضع في هذا البحث ، وكانت الإشارة إلى أنَّ جميع المؤمنين كانوا ولا يزالون يأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكن قد تضيق دائرتُهما عند أناسٍ فلا تتعدى حدود النفس أو الذات ، وتتسع الدائرة عند آخرين فتشمل المجتمع بأسره بغية التغيير والتأثير في بناء المجتمع وتوجيهه نحو الخير والحق والعدل ، بينما تتلاشى الدائرة عند طائفة ثالثة ، فتصبح صفراً يرمز إلى خوائية المجموعة ويؤكد أنَّها في حاجة إلى من ينتشلها من وهديتها .

ولكن كيف يكون هذا الانتشال ؟ أو كيف يكون إخراج

(٣) الشعراء : ٢١٤ .

(٢) النازعات : ٤١ .

تلك المجموعة ؟

من وحل الغواية والضلال ؟ علماً بأنه ليس في الكون كله شيء أصعب مراساً من الإنسان ، فهو عصيُّ الانقياد كثير اللدد واللدجاج ، لا يلتق قباهه إلّا لهواه ، ولا يستسلم إلّا لشهواته ، وما أطوعه لنداء قلبه إذا ناداه ودعاه ولو إلى الارتكاس في وحل الغواية والضلال ، إذن كيف يكون الانتشال للمرتكس في وحل الضلال ؟

مقدمات هذا البحث ونتائجُه تؤكد أن ذلك يتم عن طريق الدعوة إلى الله المرتكزة على منهج القرآن الكريم والمستضيئة بنوره الذي سيبدد - بإذن الله - دياجير الجهل والتخلف والخرافة ، ويزيل كل تعتمٍ مصطنع ، مما يمكن جميع أفراد المجتمع المؤمن من التوجه بإذن الله - نحو العدل والخير ، فيشيع بين أفرادهِ الإيمان الحقُّ والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، دون تشدد ، ودون جنوح إلى التكفير للمجتمع بأسره ، أو ميل إلى الهجرة عنه .

وخاصة من الداعية المخلص ، هو كالشمس تطلع من هنا وتخرج من هناك لتضيء للإنسانية جمعاء دون استثناء ، ومن ثم قررنا أن الانكماش أو السلبية لا تعبّر عن أية ثمرة إيمانية ، بل تتنافى مع الإيمان الحق ، لأن ثمار الإيمان لا تختفى ولا تختص بفئة دون فئة ، كالشمس لا تميز بين قوم دون قوم ، ولكنها تسير وفق قانون رباني ، كذلك الداعية يجب أن ينطلق هنا وهناك وفق التوجيه الرباني ، وله في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، حيث كان يتصل بكل الناس ، الأميين وغير الأميين ، والمهتدين وغير المهتدين ، وكان يقول من يحملني إلى الناس حتى أبلغ دعوة ربّي ؟ وكم عانى في سبيل ذلك ، ففي ثقيف مثلاً قذفوه بالحجارة فأصابته الحجارة

رأسه وقدميه ، بل أصابت كلماتٌ نابية أذنيه ، وهى فى وقعها أشدُّ من وقع الحجارة ؛ لأنَّ جرح اللسان أنكى من جرح السنان ، لا سيما إذا كان ما يقال محض افتراء وأباطيل وكان القول من الغلمان والسفهاء .

فإذا فعل الرسول ﷺ تجاه تلك الحرب الضروس والحملة الشعواء من كهراء القوم والسفهاء ؟ هل استسلم فانصرف عن دعوته ؟ أم انكش وانزوى مكتئباً بما يدور فى مكنونات ضميره ؟ كلاً ، لا هذا ولا ذاك ، لكِنَّه ثبت وصبر سالكاً فى دعوته كلَّ السُّبُل المتاحة قائلاً : (والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أدع هذا الأمر ما تركته) فكان قدوةً ومثلاً أعلى للذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة ، ومرشده فى ذلك كله وهاديه القرآن الكريم : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ (٤) ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٥) ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسُكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ (٦) ﴿ وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٧) ﴿ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ (٨) ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٩) .

ثم ماذا كان بعد ذلك ؟ كان ما يعجز عن تصوُّره الفكر البشرى المحدود المكدود ؛ إذ تمت بفضل الله انتصارات عديدة ، منها : أن هدى الله إلى الإسلام أحد العمرين اللذين كانا يجاريان الإسلام فى

(٧) إبراهيم : ١٢ .
(٨) آل عمران : ١٢٥ .
(٩) الرعد : ٢٤ .

(٤) يونس : ١٠٩ .
(٥) النحل : ١٢٧ .
(٦) الكهف : ٢٨ .

ضراوة وشراسة ، وكان أن خرج من ثقيف التي ألحقت الأذى برسول الله ﷺ محمد ابن القاسم الثقفي الذي فتح الهند ، ولا يزال اسمه يجري على لسان كل هندي تقريباً .

وهكذا يستطيع دعاة اليوم أن يستخرجوا من البيئات المجذبة المفقرة أناساً تنفّرح صدورهم للإسلام فيقبلون عليه ويكونون عوناً للدعاة في تحقيق المهمة المنيطة بهم على أكمل الوجوه واحسنها ، إذا ترسموا خطى الرسول ﷺ في تبليغ دعوته ، وإذا استضاءوا بنور القرآن الكريم ، فابتعدوا عن الغرض والهوى ، وتعاونوا فيما بينهم على ما اتفقوا عليه وعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه ، علماً بأن اختلاف سلفنا الصالح فيما استنبطوه من أحكام لم يكن وليد الهوى والشهوة ، ولا عن زيغ وانحراف ، ولا كان رمية من غير رام ، وإنما كان عن أسباب يعذر لمثلها المخطيء ويؤجر أجراً واحداً ، ويحمد المصيب ويؤجر أجرين بإذن الله تبارك وتعالى .

ولم نتعرض في هذا البحث لأسباب الاختلاف بين الفقهاء من السلف الصالح ؛ لأنه لا يعنينا كثيراً في هذه المباحث ، لكننا ركزنا على تنبيه أدياء المعرفة والذين هم على الدعوة والدعاة محسوبون ، وقد طلبنا منهم أن يتّقوا الله في أنفسهم وفي الناس ، فلا يتصدّوا للفتيا أو التوجيه والارشاد دون علم ، ودون معرفة تامة تمكنهم من أداء تلك المهمة دون غرض أو هوى ، ودون خطأ أو انحراف ، وخاصة عند الافتاء الذي استهونه كثير من الناس في هذا الزمان ، بينما استعظمه كثير من سلفنا ، وما استعظموه إلا لأن المفتي يوقع عن رب العالمين ، ولهذا ألف ابن القيم كتابه القيم (إعلام الموقعين عن رب العالمين) .

نسأل الله أن يوفقنا وأن يلهمنا الرشيد والصواب (...)

تمهيد

«تعريف بالقرآن الكريم»

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - تعدد أسماء القرآن الكريم .
- ٣ - شبهة التشكيك في القرآن الكريم وردّها .
- ٤ - تكامل الوحي بالقرآن الكريم .

١ - القرآن الكريم ؟

كلمة قرآن في اللغة العربية مصدر من الفعل قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا ، من ذلك قول الله عز وجل : ﴿فإذا قرأنه فاتبع قرأنه﴾^(١) . أى قراءته ، والقراءة هى ضم الحروف والكلمات بعضها بعضاً في الترتيل .

ذاك هو التعريف اللغوى لكلمة قرآن ، أما فى الاصطلاح فقد عرف بأنه : كلام الله المعجز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بوساطة الأمين جبريل عليه السلام ، المتعبد بتلاوته ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختتم بسورة الناس .

(١) القيامة : ١٨ .

ولكننا في صدد التعريف به نقول : هو كلام الله المعجز والموحى به على خاتم الأنبياء والمرسلين ، والذي أحكت آياته ثم فُصِّلَت من لدن حكيم خبير للتعبد بتلاوتها والعمل بمقتضاها في جميع جوانب الحياة ، في كل زمان ومكان .

فهو إذن دستور حياة المسلمين ، والنعيم الذي لا يغيض^(٢) ماؤه والجديد الذي لا تبلى جذبه ، هو حجة الله على الناس كافة ، وعلى العرب خاصة ؛ لأنه نزل بلغتهم ، فرغ ذكرهم ، وأعلا مجدهم ، وسوف يسألون يوم القيامة ماذا فعلوا بالقرآن الذي كساهم شرفاً ومجداً ، وجعل لهم بين العالمين ذكراً ، قال تعالى : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾^(٣) .

وقد اجتهد الكثيرون من علماء هذه الأمة وأدباؤها وشعرائها وبلغائها وفصحائها في وصف هذا القرآن الكريم ووضع تعريف جامع مانع ينطبق على هذا القرآن وعلى هدايته وما فيه من أسرار واعجاز ، نرجو لهم المثوبة من عند الله على ذلك الاجتهاد - وقد بقيت تعاريفهم تضيء لنا الطريق وفي الوقت نفسه تدل على محدودية العقل البشري ، ومن ثم نرى أن خير تعريف للقرآن الكريم هو ما جاء في وصف المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، نبينا محمد ﷺ ، حيث جاء وصفه تعريفاً للقرآن وتعريفاً بالقرآن لهذه الأمة التي تشرب أعناقها وتهفو أفئدتها إلى هداية القرآن الكريم في مناحي حياتها المختلفة ، وذلك في قول الرسول ﷺ عن القرآن الكريم : (كتاب الله فيه نأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم من

(٢) غاض يغيض بمعنى نقص وانحسر ، منه قوله تعالى ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ وقوله : ﴿وغيض الماء وقضى الأمر﴾ .

(٣) الزخرف : ٤٤ .

بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذّكر الحكيم ، وهو الصّراط المستقيم ، وهو الذى لا ترغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق^(٤) على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عجبًا يهdy إلى الرّشد فآمنّا به ﴾ . من قال به صدق ، ومن عمل به به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم^(٥) .

هذا الوصف يؤكد أن القرآن ليس للتلاوة والترديد وحسب ، ولكنه دستور وهداية لمن تمسكوا به وردوا إليه كلّ أمورهم ، قال تعالى مشيراً إلى جماع أهداف القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يهdy للّتى هي أقوم ﴾^(٦) .

وهداية القرآن ليست مقصورة على قوم دون قوم ، ولا على فئة دون فئة ولكنها للإنسانية جمعاء قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾^(٧) .

واخراج الناس من الظلمات إلى النور لا يكون لمجرد اقتناء القرآن المكتوب فى المصاحف ، ولا يكون لمجرد ترتيل القرآن المنقول إلينا بالتواتر ، ولكن يتحقق الاخراج من الظلمات إلى النور - بإذن الله - عبر العمل بمقتضى آيات القرآن الكريم والتمسك بتوجيهاتها فى جميع جوانب الحياة ، دون زيف أو فتنة بمتشابهها ﴿ والرّاسخون فى العلم

(٤) أى لا تبلى ولا تذهب جدته رغم كثرة القراءة والتلاوة والترديد والرد .

(٥) رواه أحمد فى باب فضائل القرآن الكريم .

(٦) الاسراء : ٩ .

(٧) إبراهيم : ١ .

يقولون آمناً به كلٌّ من عند ربِّنا وما يذكرُ إِلَّا أولوا الألبابِ ﴿٨﴾ .
ومن ثم حرصنا على أن يكون تعريفنا بالقرآن الكريم مشتملاً على
أهم الدعائم التي يجب أن يراعيها كلٌّ من يتصدى للتعريف
بالقرآن ، ليتقرر منذ البدء أنَّ القرآن كتاب هداية وارشاد كما أراده
رب العباد ، الذي خلقهم وتعهدهم بتربيتهم تربية خلقية وتشريعية ،
وأنَّ تلك الهداية لا تكون ولا تتحقق إِلَّا عبر العمل بالقرآن الكريم
إلى جانب الإيمان والافتناع بأنه تشريع من الله لتربية الخلق تربية
تشريعية لا يشاركه فيها أحد مهما أوتى من العلم والمعرفة ، وإلا إذا
كان من المشركين الذين وصفهم الله بأنهم شرُّ البرية .
وبالطبع فإن مثل هذا الإيمان المصحوب بالعمل يستلزم - لا
محالة - الإيمان والافتناع بأن القرآن موحى به من عند الله على خاتم
أنبيائه ورسله ، وأنه قد أعجز فصحاء العرب وبلغاءهم ، وأنَّ آياته
قد أحكمت ثم فصلت من لدن حكيم خبير للتعبد بتلاوتها والعمل
بمقتضاها .

وذاك هو الإيمان الكامل المتكامل ، حيث يقرن العمل
بالإيمان ، والافتناع ببقية الدعائم ، أما إذا انشطر الإيمان واقتصر
على الافتناع ببعض الدعائم فقط مثل : الإعجاز ، الوحي ،
الأحكام ، التلاوة ، ولم يشمل جانب العمل أو دعامة التطبيق
والتقيد بتوجيهات القرآن الكريم فإنَّه لا قيمة تذكر لمثل هذا
الإيمان ، بل إنَّ مثل هذا الافتناع لا يختلف كثيراً عن افتناع الباحث
المتجرد من غير المسلمين ؛ إذ إنه قد يصل إلى تلك النتائج - دون
ريب - إذا تجرد من الغرض والهوى ، ولكنه لا يتبع نتائج بحوثه

(٨) آل عمران : ٧ .

هذه بأى جانب تطبيقي ؛ لأنَّ بحثه في الأساس كان لمجرد الدراسة وتوسيع دائرة المعلومات في مجال الدراسات الشرقية والاسلامية كما يقولون -

ونعتقد أن مثل هذه الدراسات لا تصلح تعريفاً بالقرآن الكريم للمؤمنين الذين تشرب أعناقهم وتهفو أفئدتهم إلى معرفة مدى تغلغل القرآن الكريم في جوانب حياتهم المختلفة دون انشطار لها ، وفي الأغلب الأعم لا تكون مثل هذه الدراسات أمينة في التعريف بالقرآن لا سيما وأنها تحصر القرآن في دائرة المطارحات الفكرية العقلية ، ثم التلاوة والترديد دون عمل أن تطبق . وما هكذا ينبغي أن يعرف بالقرآن ، خاصة في هذا الزمان ، لذا ملنا إلى التعريف به عبر الدعائم الأساسية وسنزيد تلك الدعائم جلاء ووضوحاً خلال هذا البحث إن شاء الله ، ونشير الآن إلى أن «سر القرآن ولبابه الأصغرى ومقصده الأقصى ، دعوة العباد إلى الجبار الأعلى ، رب الآخرة والأولى ، خالق السموات العلى والأرضين السفلى» (٩) .

٢ - تعدد أسماء القرآن الكريم

تعدد الأسماء للشيء الواحد سمة من سمات اللغة العربية وخاصية من خصائصها ، وقد جاء القرآن الكريم متحدياً العرب في أخص خصائصهم هو البلاغة وكل ما تفرع عنها واندرج تحت فن القول والتعبير البياني بطرق مختلفة ، من تصريح وكناية ، أو مشترك لفظي ومترادف الخ ..

(٩) أبو حامد الغزالي - جواهر القرآن - ط ثانية - مطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٣ م .

وتتعدد الأسماء ضرباً من الترادف اللغوي المميز في القرآن الكريم بدلالات جديدة في كل اسم من اسمائه المتعددة .
فن الذي وضع هذه الأسماء المتعددة والمميزة بتلك الدلالات ؟ وما هي الأسماء ؟

أوحى الله سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم وتولّى حفظه كما تولى وضع أسماء بعينها له ، فلم يك ثمة مجال للتحريف أو التبديل في القرآن الكريم بالحذف أو الزيادة ، حيث جاء كاملاً متحدياً حتى في وضع الأسماء وتعددتها ، من تلك الأسماء ما يلي :

١ - القرآن ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (١٠) .
٢ - الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١١) .

٣ - الذكر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١٢) .

٤ - الكتاب ﴿الْمِ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣) .

٥ - التنزيل ﴿وَإِنِّه لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤) .

٦ - النور ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) .

٧ - الروح ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (١٦) .

وغيرها من التسميات والصفات التي ذكرها الله سبحانه وتعالى للقرآن الكريم (١٧) تحدياً وبياناً لأهداف القرآن الكريم

(١٤) الشعراء : ١٩٢ .

(١٠) الاسراء : ٩ .

(١٥) المائدة : ١٥ .

(١١) الفرقان : ١ .

(١٦) الشورى ٥٢ .

(١٢) الحجر : ٩ .

(١٣) البقرة : ١ .

(١٧) راجع كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، وكتاب البرهان للزركشي ، وكتاب الهدى والبيان في أسماء القرآن - لصالح بن إبراهيم البلبيسي ، حيث عني كل منهم بذكر أعداد كبيرة من تلك الأسماء ، مع الاستشهاد بالآيات القرآنية للأسماء التي استخرجوها .

والتي رأينا أن جاعها يتمركز في الهداية والارشاد أو الاخراج من الظلمات إلى النور عبر التربية التشريعية للخلق أينما كانوا وفي أى زمان كانوا .

فهذه التربية وتلك التسمية والتعهد بحفظ القرآن نعم إلهية كفت المؤمنين مؤونة حفظ القرآن الكريم ، وصدت عنهم مغبة ما كان سيقع من خلاف وشجار لولا العناية الإلهية بالحفظ والهداية .

ومن ثم لم يقم أى خلاف بين المسلمين طوال قرون خلت ، ولن يقوم بإذن الله - في النص القرآني ذاته ، لكنهم اختلفوا في فهم معاني بعض النصوص ، تبعاً للاختلاف في فهم الدلالات اللغوية أو القواعد الأصولية لاستنباط الأحكام ، إلا أن هذا الأمر لم يكن على إطلاقه ؛ لأن هناك ما هو قطعي الدلالة ولا مجال للاختلاف فيه البتة ، وقد وضع ذلك كله سلفنا الصالح ، أجزل الله لهم المثوبة والعطاء .

٣ - شبه التشكيك في القرآن وردها :

لقد تشكك المغرضون - قديماً وحديثاً - في القرآن الكريم وشككوا في الوحي به ، ووصفوا النبي ﷺ بأنه شاعر تارة ، وساحر أخرى وبأنه مصاب بصرع أو نوبات عصبية تعتره من وقت لآخر ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً .

وقد تولى الله سبحانه وتعالى الرد على قدامى المشككين الحاقدين ، أما المحدثون من متعصبى المستشرقين فقد هباً الله من يرد عليهم ، ومن بنى ، جلدتهم أيضاً ، منهم المستشرق

السير «وليام موير» صاحب كتاب حياة محمد ، حيث تحدث عن القرآن ودقة وصوله إلينا ، وأكد أن الذين هاجموا الإسلام ورسوله بعيدون كل البعد عن البحث العلمى التزبه ، وأوضح أن ما ذهب إليه البعض من تصوير حالة الرسول ﷺ إبان الوحي بأنها حالة صرع أو نوبة من نوباته تصوير خاطيء من الناحية العلمية ؛ إذ إن نوعية الصدع لا تترك عند من نصيبه أى تذكر لما مر به أثناءها بل إن ينسى تلك الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً ، ولا يعرف شيئاً مما حدث خلالها ، ذلك لأن حركة الشعور تتعطل خلال تلك اللحظة تمام التعطل .

ونعتقد أن هذه الحقائق التى أشار إليها (وليام موير) لا تخفى على بنى عمومته ، ولكنها المكابرة والعناد ، وعدم التجرد والموضوعية فى البحث ، وإلّا لما أنكروا على محمد ﷺ شيئاً لم ينكروه على أنبيائهم والأنبياء السابقين لأنبيائهم ؛ إذ إن ظاهرة الوحي قديمة قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (١٨) .

الآية الأخيرة تشير إلى الحكمة من ارسال الرسل وهى قطع

حجة البشر بإرسال الرسل ، وتؤكد ضمناً حاجة البشرية
جمعاء إلى اتصال السماء بالأرض .

والاكتشافات العلمية التي يعرفها جيداً بنو عمومة «وليام
موير» . تؤكد ضرورة هذا الاتصال ، ولن يكون ذلك
الاتصال إلا عبر الوحي بطريق من طرقه المعروفة ..

فلا غرابة إذن في الوحي من حيث هو ، كما لا غرابة في
الوحي إلى محمد ﷺ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ
مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ
رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ (١٩) .

هذا وقد تثار شكوك وتساؤلات حول نزول الملك على
محمد ﷺ وهو بين ملائ من أصحابه دون أن يراه واحد
منهم ، ولا غرابة في مثل تلك التساؤلات إذا كانت ابتغاء
الاطمئنان القلبي ، أما إذا كان السائل يرتب عليها حكماً
بالرفض أو الإنكار لنجيء الملك ومن ثم الوحي طالما كانت أعين
الموجودين مع النبي ﷺ - لحظة الوحي - لم تر الملك فيكون
تساؤله عندئذ مردوداً وحكمه مرفوضاً ؛ ذلك لأنه ليس من
شروط الموجودات أن تُرى بالأبصار حتى يحكم لها بالوجود ،
خاصة وأن قوة الأبصار محدودة بل «إن علماء الفيزياء قد أثبتوا
أن بعض الألوان لا تراها كل العيون ، وأن هناك إشعاعات
ضوئية دون الضوء الأحمر ، وفوق الأشعة البنفسجية لا تراها
عيوننا ، ولا شيء يثبت أنها كذلك بالنسبة إلى جميع العيون ،
أو أليس هناك عيون أقل أو أكثر حساسية من عيون أخرى ؟

(١٩) يونس : ٢ .

إذن فما المانع أن يرى محمد وحده الملك ويفهم ما يتكلم به ،
ولا يراه الآخرون ، أو لا يدركون ماذا تعني تلك الهيمنة أو
الدوى ؟» (٢٠) .

وقبل هؤلاء المستشرقين بمئات السنين كان كفار قریش
يزعمون هذا الزعم نفسه ، ومن ثمَّ طلبوا من الرسول ﷺ أن
يأتيهم بقرآن آخر ، لكنه أعلن عجزه عن الاستجابة لتلك
الرجبة ، لأنها فوق مقدوره البشرى ، فلو كان القرآن من تأليفه
لاستجاب إلى رغبتهم ، وقد أخبرنا الله بهذه المواقف حيث
قال : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَاءَنَا إِنَّمَا يَبْرَأَانِ أَوْ بِرَاءٌ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ
مِنْ تِلْكَ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ إِنِّي أَخَافُ إِنْ
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ
عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ﴾ (٢١) .

وقد قال الإمام الفخر الرازى : إنَّ الكفار شاهدوا رسول
الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت وكانوا عالمين بأحواله
وأنه ما طالع كتاباً ، ولا تتلمذ لأستاذ ولا تعلم من أحد ، ثم
بعد أنقرض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل
على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف
علم الأخلاق وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته
العلماء والفصحاء والبلغاء ، وكل من له عقل سليم يعلم أن
مثل هذا لا يكون إلَّا على سبيل الوحي والتتزيل ... (٢٢) وكون

(٢٠) مالك بن نبي - الظاهرة القرآنية من ١٧٨ .

(٢١) يونس : ١٥ - ١٦ .

(٢٢) الرازى : ١٧ - ٥٧ .

الرسول ﷺ لم يطالع كتاباً ولم يتتلمذ على أستاذ هذا أمرٌ ثابتٌ بالقرآن الكريم ، وهو أوثق مصدر لمعرفة حياة الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ ۝ ﴾ (٢٣) وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ۚ ﴾ (٢٤) وقال : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۚ ﴾ (٢٥) أى ما كنت تطمع أن تنال النبوة ولا أن ينزل عليك القرآن ، لكن رحمك الله بذلك ورحم العباد ببعثتك فأنزل عليك القرآن الكريم هدىً ورحمةً للعالمين وعلمك ما لم تكن تعلم .

ومن ثم كان «موقف الرسول الملىء بالخشبة والتقديس نحو القرآن المنزل عليه ، وإيمانه بأنه كلام الله ذاته ، ولم يكن في مقدوره أن يدخل عليه أى تعديل ، وعند تفسيره كان موقفه كموقف أى مفسر أمام نص ليس له ، وكان يرتعد أن ينسب إلى الله قولاً لم يقله مهما كان هذا القول بسيطاً ، كما كان يشعر بحرس من السماء ومراقبين يقظين يحيطون به ويراقبونه فيما يقوم به تجاه رسالته» (٢٦) .

كما أن حرص النبي ﷺ على سرعة حفظه وتبليغه للناس كما أنزل يعد دليلاً قوياً على أن القرآن ليس من تأليفه ؛ إذ لو كان من تأليفه لما احتاج إلى حفظه أو التلهف إلى سماعه بتلك الصورة ، ولو احتاج إلى حفظه لما وجد فيه مشقة أو معاناة ، والثابت أنه كان يجد

(٢٣) النساء : ١١٣ .

(٢٤) الشورى : ٥٢ .

(٢٥) القصص : ٨٦ .

(٢٦) د . محمد عبدالله دراز - مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٦٩ .

فى ذلك معاناة شديدة حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد
البرد ، وقد أراد الله أن يخفف عنه هذا العناء فأنزل عليه قوله
تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ،
فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ﴾ (٢٧) وذلك تعليم للرسول
ﷺ كيف يتلقى الوحي من الملك ، وتخفيف للشدة والمعاناة التى
كان يجدها فى سبيل تلقى الوحي وحفظ القرآن الكريم ، وقد روى
عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان رسول الله ﷺ
يعانى من التزليل شدة فكان يحرك شفتيه ، فأنزل الله عز وجل :
﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه
وقرآنه ﴾ (٢٨)

وبعد هذا كله نشير إلى أن محمداً ﷺ كان يعلن دوماً أن القرآن
كلام الله ، وأنه تلقاه بواسطة جبريل ، وليس له سوى مهمة النقل
والتبليغ ، وقد كان أميناً فى نقله عن جبريل ، وتبليغه إلى الناس
كافة ؛ ذلك لأن صفتى الصدق والأمانة قد لازمتاه طوالت أربعين
عاماً قبل البعثة ، وقد شهد له بذلك جميع قومه ، فما الذى يجعله
يكذب أو يتحول عما كان عليه بعد أن بلغ سن الرشد ؟ كما أن
المؤرخين مجمعون (٢٩) على أنه كان أميناً لم يقرأ كتاباً ولا خطه
بيمينه ، ولم يدرس تاريخ الأمم الغابرة ولم يدرس قانوناً أو تشريعاً
لتنظيم أى جانب من جوانب الحياة ، فضلاً عن الحياة كلها ، فمن
أين له بكل هذه الأشياء إذا لم تكن هناك صلة بينه وبين السماء
ووحى ومدد من علام الغيوب ؟ بل أية عبقرية تلك التى تستطيع أن

(٢٧) القيامة : ١٦ - ١٩ .

(٢٨) البخارى ومسلم .

(٢٩) راجع تاريخ الطبرى ، ثم الكامل - لابن أثير ، وسيرة ابن هشام .

تلهم صاحبها الحديث الدقيق عن الكون وما كان وما هو كائن أو سيكون ؟ وهل سجل أو سطر واحد من العباقرة قبل النبي محمد ﷺ - شيئاً يشبه ما جاء به محمد ﷺ ليقال أن عمل محمد ما كان إلا امتداداً لعمل بشرى مسبق . وليس لمحمد فيه سوى إضافة يسيرة هي التي ميزته ، أو لا إضافة ولا تمييز ؟!!

لم يقل أحد ذلك ، حتى الذين كفروا به وناصبوه العدا لم يستطيعوا أن يزعموا هذا الزعم ، على الرغم مما هو ثابت من أن الفكر البشرى ما هو إلا سلسلة متصلة الحلقات ، وأن العرب القدامى كانوا يتناقلون الأفكار ويعيدونها ويكررونها :

ما أَرانا نقول إلا معاراً

أو معاداً من قولنا مكروراً

واعتقد أن ما يساق من أدلة وبراهين عقلية إننا محتاج إليها الكافر أو المشرک أو من كان ضعيف الإيمان ، أما المؤمن القوى الإيمان فإنه يؤمن بالله رباً ومحمد رسولاً ، وبأن هذا الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، ومن ثم لا تأخذه شبهة في القرآن ، لكنه كلما قرأه ازداد إيماناً ، واستضاء بنور القرآن الذى يهدى للتي هي أقوم ، ففي القرآن آيات كثيرة تهديه وترشده إلى أن القرآن ليس من قول البشر ولكنه تنزيل من رب العالمين من ذلك قول الله عز وجل :

﴿وانه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين﴾^(٣٠) وقوله : ﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾^(٣١) وقوله : ﴿وان أحد من

(٣٠) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤ .

(٣١) النمل : ٦ .

المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴿٣٢﴾ وقوله : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رُبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣٣﴾ وقوله ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ، وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيل ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ، وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مَكْذِبِينَ ، وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٣٤﴾ .

فالله سبحانه وتعالى قد أقسم لعباده بما يبصرون وما لا يبصرون - مؤكداً لهم أن هذا القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، ومشييراً إلى صدق هذا الرسول ورشده وأنه مؤيدٌ من ربه بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات ، ذاكرةً أن هذا النبي لا يتقوّل على الله ، وليس هناك ما يدعوه إلى فعل ذلك ، ولو فعل لعجّل عليه بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر ..

٤ - تكامل الوحي :

نعني بذلك التكامُل اِكْتِمَال نزول القرآن على قلب النبي محمد ﷺ ، حيث كان ينزل مفرقاً وبحسب مقتضيات الأحوال ، قال

(٣٢) التوبة : ٦ .

(٣٣) يونس : ١٥ .

(٣٤) الحاقة : ٣٨ - ٥٢ .

تعالى : ﴿وقال الَّذِينَ كفروا لولا نَزَّلَ عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه تنزيلاً﴾ (٣٥) وقال : ﴿وقرئنا فرقاه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ (٣٦) فالقرآن إذن كان ينزل على النبي ﷺ منجماً : آية وآيتان ، أو أكثر ، أو سورة بأكملها ، لحكمة إلهية ، وتمشياً مع مقتضيات أحوال الداعية والمدعوين في آن واحد ، ذلك لأن الرسول ﷺ كان في حاجة إلى أن يثبت ربه ويشد من أزره حتى يقوى على الصبر والمصابرة ، ويثبت في وجه أعداء الله من قومه الذين ألحقوا به أذى جسيماً ، بل ناصبوه العداء ، وقد ضاق صدر الرسول ﷺ بطعن المشركين في القرآن الكريم ، فشكاهم إلى الله عز وجل طالباً التثبيت والتأييد ﴿يا ربَّ إنَّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ (٣٧) وقد عظم الله شكوى نبيه الكريم وخوف قومه مما فعلوا وقالوا ، حتى لا يلحق بهم الدمار أو الهلاك ؛ لأن الأنبياء إذا التجأوا إلى الله وشكوا قومهم حلَّ بهم العذاب ولم يمهلوا ، وثبت نبيه الكريم بتوجيهات عديدة ، منها ما جاء في قوله تعالى : ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ (٣٨) وفي قوله : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيً عدواً شياطين الإنس والجن﴾ (٣٩) وفي قوله : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيً عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ وقال الَّذِينَ كفروا لولا نَزَّلَ عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه تنزيلاً ..﴾ (٤٠) .

(٣٨) الحجر : ٩٧ - ٩٩ .

(٣٩) الأنعام : ١١٢ .

(٤٠) الفرقان : ٣٢ .

(٣٥) الفرقان : ٣٢ .

(٣٦) الاسراء : ١٠٦ .

(٣٧) الفرقان : ٣٠ .

فالحكمة الكبرى من تنزيل القرآن الكريم منجماً هي مددغيغتلغتضيدئدلاحوال ، ثم تثبت قلب النبي ﷺ ، وتثبيت قلوب المؤمنين أيضاً ، حسب تفسير ابن كثير لقوله تعالى ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ حيث قال :

«أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والانجيل والزبور وغيرهما من الكتب الإلهية ؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به»^(٤١) .

كما أن التنجيم يساعد الرسول ﷺ فى حفظ القرآن أو استظهاره ، وبعبارة أخرى تبليغه كما أنزل ، ومن ثم كان حرصاً بالحرص كله على تلقف الوحي ساعة نزوله وتحريك لسانه بالقرآن الكريم إلى أن جاءه توجيهه الله عز وجل : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^(٤٢) وذلك يقتضى مهلة وتدرجاً فى انزال القرآن الكريم .

يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم إنما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بدعوتهم إلى أن يغيروا ما بأنفسهم ليتغير ما حولهم .

وهناك آراء أخرى يمكن الرجوع إليها لمعرفة ومعرفة مناقشة العلماء لها لمن أراد التوسع^(٤٣) .

وخلاصة القول أن القرآن الكريم كان فى اللوح المحفوظ ثم أنزل

(٤١) ابن كثير ج ٢ ص ٦٣١ .

(٤٢) القيامة : ١٧ .

(٤٣) راجع التسهيل لعلوم التنزيل ، الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١٦/١ - ٨٣ .

على قلب الرسول ﷺ منجماً ، ولا تعارض بين هذا التنزيل
وذاك ، لأن التنزيل على قلب الرسول ﷺ كان حسب مقتضيات
أحوال الدعوة والداعية والمدعويين ، أما التنزيل في اللوح المحفوظ
فقد كان جملة واحدة للحفظ ، بدليل قوله تعالى : ﴿لَبِىْلٌ هُوَ قُرْآنٌ
مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾^(٤٤) قال ابن كثير : «أى هو في الملأ الأعلى
محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل ، روى ابن أبي
حاتم عن عبد الرحمن بن سلمان قال : «ما من شيء قضى الله ،
القرآن فما قبله وما بعده ، إلا هو في اللوح المحفوظ ، واللوح المحفوظ
بين عيني إسرافيل لا يؤذن له بالنظر فيه» وقال : الحسن البصري :
إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ ، ينزل ما يشاء على من
يشاء من خلقه»^(٤٥) .

وفي السنة النبوية ما يؤكد هذا النزول ، ويدل على أنه غير
النزول الذي كان على قلب الرسول ﷺ ، فعن ابن عباس موقوفاً
«أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل
بعد ذلك بعشرين سنة ، ثم قرأ : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ
بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٤٦) ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ
عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾^(٤٧) .
ومن هنا جاء اختلاف العلماء حول كيفية تلقى جبريل الوحي
بالقرآن الكريم :

فمنهم من ذهب إلى أن جبريل كان يتلقى القرآن سماعاً من الله عزَّ

(٤٤) البروج : ٢١ - ٢٢ .

(٤٥) ابن كثير : مختصر ابن كثير : م ٣ ص ٦٢٦ .

(٤٦) الفرقان : ٣٣ .

(٤٧) الاسراء : ١٠٦ .

وجل بلفظه المخصوص ، وينقله إلى محمد ﷺ دون تبديل أو تعديل .

ومنه من قال : إنَّ جبريل قد حفظه من اللوح المحفوظ ، كما أنَّ هناك من قال : أُلقي إليه المعنى ثم عبَّر عن ذلك بالفاظ من عنده .

والحق مع أصحاب الرأي الأول ، وهو رأى أهل السنة والجماعة ، يؤيده حديث النّواسة بن سمعان الذى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم الوحي ، أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا منه سُجُداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مرَّ بسماءٍ سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق وهو العلى الكبير ، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل .. » (٤٨) .

أما الرأى الثانى فردود ، لا لأنّه متعارض مع حقائق الأشياء وحسب ، ولكن لأنه قاصر أو ناقص ؛ إذ لا معنى لحفظه دون نقله إلى النّبي ﷺ ، وإلّا لكان شأن القرآن شأن الغيبات الأخرى المثبتة فى اللوح المحفوظ .

أما الرأى الثالث فإنه غير مقبول ، ولا يسنده أى دليل نقلى أو عقلى يشير إلى أن القرآن كلام الله بالمعنى ، والالفاظ لجبريل أو محمد ، بل هذا مناف لما جاء فى آيات كثيرة تُجرّد الرسول من نسبة

(٤٨) أخرجه الحاكم والبيهقى .

القرآن إليه ، وتؤكد أنه ليس له في القرآن حرف أو كلمة ، إنما هو متلقى لكلام الله شكلاً ومضموناً ، معنى والفاظاً ، وإلا لما تعجل في حفظه خشية نسيانه كلمة منه ، ولما قال لكفار قريش عندما طلبوا منه أن يبدل القرآن : إنَّ القرآن فوق طاقتي ، وليس في مقدوري أن أبدله أو أبدل حرفاً فيه ، وما أنا إلا ناقل أمين ، اتبع ما يوحى إلى منه ، قال تعالى :

﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي ، إِنْ اتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ...﴾ (٤٩) .

(٤٩) يونس - الآية رقم ١٥ .

الفصل الأول

التعبد بتلاوة القرآن الكريم

- (أ) الأمر الإلهي للرسول الكريم بتلاوة القرآن الكريم .
- (ب) ثبوت الأجر لمجرد تلاوة القرآن الكريم .
- (ج) أهمية الاحتفاء بالقرآن الكريم وكيفية .
- (د) الحث على تلاوة التدبر والتفكير .
- (هـ) لماذا انفرد القرآن بخاصية الأجر لمجرد التلاوة ؟

(أ) الأمر الإلهي للرسول الكريم بتلاوة القرآن :

التلاوة هي الدعامة الثالثة من دعائم التعريف بالقرآن الكريم ، وهي ليست أمراً مبتدعاً ، ولكنها من الأمور التي فعلها الرسول ﷺ بأمر من الله تبارك وتعالى ، وقد جاء هذا الأمر في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى :

﴿وَأَنذِرْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ ^(١) ﴿أَنذِرْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ^(٢) ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ ^(٣) ﴿إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ

(١) الكهف : ٢٧ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) العنكبوت : ٥١ .

المسلمين . وأنْ أتلو القرآنَ فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه
ومن ضلَّ فقلْ إنما أنا من المنذرين» (٤) .

أى وأمرت أيضاً بتلاوة القرآن لتكشف لى حقائقه
الرائعة ، وأن أقرأه على الناس ، فمن اهتدى بالقرآن واستنار
قلبه بالإيمان فإن ثمرة هدايته راجعة إليه ، ومن ضلَّ عن
طريق الهدى فوبال ضلاله مختص به (٥) .

وقد امثل الرسول الكريم أمر به له بالتلاوة والترتيل :
«يا أيُّها المزمِّل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه
قليلاً ، أوزد عليه ورَّتل القرآن ترتيلاً» (٦) . قال الخازن «لما
أمره تعالى بقيام الليل اتبعه بترتيل القرآن حتى يتمكن المصلِّ
من حضور القلب والتفكير والتأمل فى حقائق الآيات
ومعانيها ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر بقلبه عظمة
الله وجلاله ، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل له الرجاء
والخوف ، وعند ذكر القصص والامثال يحصل له
الاعتبار ، فيستير القلب بنور معرفة الله» (٧) وثبت أن
الرسول ﷺ كان يقيم الليل مرتلاً القرآن حتى تورمت
قدماه ، روى الامام أحمد عن زرارة بن أوفى ، عن سعيد
ابن هشام قال قلت : يا أم المؤمنين انبئينى عن خلق رسول
الله ﷺ ، قالت : أأست تقرأ القرآن ؟ قلت بلى ،
قالت : فإنَّ خُلِقَ رسول الله ﷺ كان القرآن ، فهممت أن
أقوم ، ثم بدا لى قيام رسول الله ﷺ ، فقال : أأست تقرأ

(٤) التل : ٩١ - ٩٢ .

(٥) محمد على الصابوني - صفوة التفسير - ج ٢ ص ٤٢١ .

(٦) المزمِّل : ١ - ٤ .

(٧) تفسير الخازن ١٦٥/٤ .

هذه السورة ﴿يا أيها المزمل﴾ ؟ قلت بلى ، قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم^(٨) .
 كما رغب النبي ﷺ المؤمنين في المداومة على تلاوة القرآن الكريم ، وذلك من خلال قوله : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)^(٩) وقوله : (أهل القرآن أهل الله وخاصته)^(١٠) وقوله : (إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، فقليل يا رسول الله وما جلاؤها ؟ قال تلاوة القرآن وذكر الموت)^(١١) وقوله : (من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف ، وميم حرف)^(١٢) .
 فذاك ترغيب في شيء يعين على جلاء القلوب ونقاء السيرة ، وتحقيق السعادة في الدارين بإذن الله تبارك وتعالى ..

(ب) ثبوت الأجر لمجرد تلاوة القرآن الكريم :

لقد ثبت أن مجرد ترديد ألفاظ القرآن ولو من غير فهم فيه أجر وثواب من الله عز وجل ، ويتضاعف هذا الأجر ويزداد كلما تيسر الفهم وازداد وكلما قرأ القارئ قراءة تدبر وتفهم ، قال تعالى :

(٨) ابن كثير - مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٦٣ - ٥٦٤ .

(٩) البخاري .

(١٠) النسائي وابن ماجه والحاكم .

(١١) البيهقي في الشعب .

(١٢) الترمذي .

﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصَّلَاةَ وانفقوا ممَّا رزقناهم سِرًّا وعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ لِيُؤْتِيَهُمُ أَجُورَهُمْ وَيُزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (١٣).

وتلك إشادة بالذين يداومون على تلاوة القرآن الكريم ويعملون بمقتضاه ، ووعد من الله لهم بأنه سيوفيهم جزاء أعمالهم وثواب ما فعلوا من صالح الأعمال ، ويزيدهم - فوق أجورهم - من فضله وإنعامه وإحسانه ، قال في التسهيل : توفية الأجور هو ما يستحقه المطيع من الثواب ، والزيادة : التضعيف فوق ذلك أو النظر إلى وجه الله ، ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أى مبالغ فى الغفران لأهل القرآن ، شاكر لطاعتهم ، قال ابن كثير : كان مطرف إذا قرأ هذه الآية قال : هذه آية القراء (١٤) .

فالآية لم تربط التلاوة بأية درجة من درجات الفهم ، ولكنها ربطت التلاوة بالصلاة والانفاق السرى والعلنى ، وتلك دعوة إلى تطبيق ما فى القرآن الكريم .. ومن ثم نقول : من لم يتسن له الفهم الدقيق أو المتكامل ، ولم تتيسر لديه القراءة بطلاقة فليسأل أهل الذكر ، وليعن بالجانب التطبيقى قبل التجويد للقراءة أو الفهم المتكامل ، ثم ليجتهد بعد ذلك ما وسعه الاجتهاد لتحسين تلاوته وتوسيع دائرة معرفته دون قلق أو جزع ، لأن أجره ثابت عند الله ، ودون حسد للماهرين فى التلاوة والقادرين على الفهم ؛ إذ لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولهذا قال الرسول

(١٣) فاطر : ٢٩ - ٣٠ .

(١٤) محمد على الصابوني - صفوة التفاسير ج ٢ ص ٥٧٥ .

ﷺ : «الماهر في القرآن مع السفرة البردة ، والذي يقرأ القرآن وهو عليه شاق يتتبع فيه له أجران ، أجر التلاوة وأجر التتعة» (١٥) ..

والمهارة هنا تعني تجويد القراءة ، والذي يدل على ذلك هو المقابلة اللفظية أو المعنوية التي جاءت في حديث الرسول ﷺ ، بين الماهر والذي يتتبع في قراءة القرآن . والتجويد كما عرفنا هو الاتقان والنطق الصحيح بالقرآن الكريم ، فهو إذن صناعة لفظية لها قواعدها التي تعين على إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها ورد الحرف إلى مخرجه الأصلي ، ومن ثم لا تكفي الدراسة فقط لقواعد التجويد ، ولكن لابد من التدريب العملي على السماع ثم النطق .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن القراءة بلا تجويد لحناً في القرآن ، واللحن خللٌ يطرأ على الألفاظ ، وحيث يلحق مخارج الحروف ، لهذا نسب إلى أبي بكر الصديق قوله : لئن أقرأ فأسقط خيرٌ لي من أن أقرأ فألحن» وإلى ابن الخطاب قوله : «للحنكم في القول أشدُّ على من خطئكم في الرمي» .

وإذا كان اللحن معيباً مستهجنًا فالمبالغة في التجويد إلى حد التكلف والتنطع أيضاً معيبة مستهجنة ؛ ذلك لأن التكلف والتنطع كثيراً ما يقودان إلى زيادة أو نقص في الحروف أو في نطقها ، وذاك حيفٌ وظلمٌ للحروف والكلمات كما يحدث مع اللحن ، والمتكلف المتنطع لا يعدُّ

(١٥) مسلم كتاب صلاة المسافرين - باب فضل الماهر بالقرآن - رقم ٧٩٨ .

ماهرًا المهارة التي عناها الرسول ﷺ بقوله : « الماهر في القرآن مع السفارة البررة » ؛ لأنه بتكلفة وتنطعه يكون قد ابتعد عن دائرة الاتقان والتجويد ، ومن ثم يبتعد عن دائرة المهارة .

(ح) أهمية الاحتفاء بالقرآن وكيفيته :

لا بد لنا - نحن المسلمين - من أن نحتفي ونحتفل بالقرآن الكريم ؛ ذلك لأن الاحتفاء به يثير دوماً حركة الفكر ويُجدد نشاط العقل البشري المحدود المكدود ، والذي كثيراً ما تطرأ عليه حالات الجمود والخمود ، فيدعو ذلك الاحتفاء إلى التجديد في الفكر الديني على ضوء الأطر الكبيرة التي وضعها القرآن الكريم ، لمقابلة ما يجد ويتجدد في الأمور الدنيوية للبشر ، بل إن الاحتفاء بالقرآن الكريم يعطي كل مؤمن شحنة روحية تعين على صفاء نفوس المؤمنين ونفوس الذين أوتوا العلم منهم على وجه أخص ، قال تعالى :

﴿تَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ^(١٦) وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خُشُوعًا .﴾ ^(١٧) والمقصود هنا العلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من صالحى أهل الكتاب إذا

(١٦) الزمر : ٢٣ .

(١٧) الاسراء : ١٠٧ - ١٠٩ .

سمعوا القرآن تأثروا فخروا ساجدين لله رب العالمين حالة كونهم باكين عند سماع القرآن ، فالضمير إذن في قوله ﴿يَتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ إنما يعود إلى العلماء المصرح بذكرهم قبل الضمير ، حيث بدأت الآية بقوله تعالى ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سَجْدًا﴾ .

إذن آية الاسراء المذكورة هنا تؤكد تأثير القرآن الكريم تأثيراً بالغاً يدعو إلى البكاء ويدعو إلى السجود طوعاً واختياراً لله عز وجلّ اجلالاً وتعظيماً ، وذلك كله لمجرد سماع القرآن ، أما آية الزمر المذكورة هنا أيضاً فإنها تشير إلى تأثير القرآن المتمثل في قشعريرة الأبدان واطمئنان القلوب عند تلاوة القرآن الكريم ، هيبة من الرحمن واجلالاً لكلامه ..

وهذا وذاك يؤكدان ما ذهبنا إليه من ضرورة الاحتفاء والاحتفال بالقرآن الكريم ليتجدد العقل والفكر ، وتصفو النفس والروح ، ولكن كيف يكون هذا الاحتفال أو الاحتفاء ؟ اتكفى المهرجانات الشكلية التي تقام هنا وهناك بمرور عام أو مائة عام ؟ أم لا علاقة لمثل هذه المهرجانات الشكلية بتنشيط العقل وتجديد الفكر وتنقية النفس والروح ؟

نعتقد أن الاحتفاء المطلوب بالقرآن الكريم يتمثل في المقام الأول في العناية بالقرآن الكريم تعلماً وتمسكاً ، ليكون أثره عظيماً وعطاؤه وفيراً فيعم هديه ونفعه ، ومن ثم نبيب بكل مسلم أن يسمح لنور القرآن بالدخول إلى داره ، ليعمر قلبه وقلوب أهله وعشيرته بالإيمان ، وألا يتصور بعض

الآباء أن هذا الدخول قد يتحقق لهم عبر المذباح أو التلفاز الذى يفتح براحه بآى من الذكر الحكيم ، أو عن طريق اقتناء المصحف ووضعه فى المنزل زينة أو تبركاً !!! ولكن علينا جميعاً أن نحقق معنى قول الله عز وجل :

﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ وقوله : ﴿وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون﴾ (١٨) وقوله : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ (١٩) .

وبهذا يتحقق احتفاؤنا العظيم بالقرآن ، وتتوثق صلتنا به ، فلا نكون من الذين عناهم القرآن الكريم - على لسان الرسول ﷺ - بقوله : ﴿إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ ، ولنكن على ذكر من أنواع هجر القرآن التى ذكرها العلامة ابن القيم رحمه الله حيث قال : أحدهم هجر سماعه والإيمان به ، والثانى : هجر العمل به وإن قرأه وآمن به ، والثالث : هجر تحكيمة والتحاكم إليه ، والرابع : هجر تدبره وتفهم معانيه ، والخامس : هجر الاستشفاء والتداوى به فى أمراض القلوب ، وكل هذا داخل فى قوله تعالى : ﴿إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ وإن كان بعض المهجر أهون من بعض (٢٠) . فلتتوثق صلتنا بالقرآن تعلماً وتمسكاً ، ولنذكر قول الرسول ﷺ : «اقرأوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شافعياً

(١٨) الأعراف : ٢٠٤ .

(١٩) الأنفال : ٢ .

(٢٠) محمد جبال الدين القاسمى - محاسن التأويل ١٢/ ٥٧٥ .

لصاحبه» (٢١) وعندما تتوثق صلتنا بالقرآن الكريم قراءة وتعلماً وعملاً يحق لنا أن نقيم المهرجانات التي تحفز الهمم وتشحذ الأذهان ..

(د) الحث على تلاوة التدبر والتفكير :
أتكفي مجرد التلاوة أو القراءة للحصول على الشفاعة المذكورة في حديث رسول الله ﷺ : «اقرأوا القرآن فإنه يحيى شفيعاً لصاحبه يوم القيامة» أم لا ؟ نأمل ونرجو أن يكون ذلك كذلك طالما ثبت الأجر لقارئ القرآن وهو عليه شاق يتتبع فيه ، ولكن الأجر درجات ، والقراءة أنواع ، الذى يتتبع قد يكون حاضر القلب مرهف الحس والمشاعر ، لكنه يُحسُّ بالثقل فى اللسان لعدم تعوده على لغة القرآن ورسمه ، أو عدم معرفته والمأمة بقواعد لغة العرب ، وقد يكون القارئ طلق اللسان لكنه غافل الجنان ، لا يتدبر ما فى القرآن ، ولا يهتم بالعمل بمقتضاه ، هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون !
ومن ثم نحثُ وندعو إلى قراءة التدبر والتفكير فى القرآن الكريم مع تعظيم له واستحضار القلب ، بغض النظر عن الطلاقة فى اللسان أو العجز طالما كان عجزاً مقدراً ..
ونعتقد أن قراءة التدبر هى الترتيل المطلوب فى قوله تعالى :

﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ أى إقرأه على تمهل فإنه يكون

(٢١) مسلم - كتاب صلاة المسافر باب فضل قراءة القرآن - رقم ٨٠٤ .

عوناً على فهم القرآن وتدبره ، وكذلك كان يقرأ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة : كان يقرأ السورة فيرتها ، حتى تكون أطول من أطول منها ، وفي صحيح البخارى عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت مداً ، ثم قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ بمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم ، عن أم سلمة رضى الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت : كان يقطع قراءته آية آية .. وفى الحديث : يقال لقارئ القرآن : اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» (٢٢)

فالترتيل يعنى التمهّل والتأمل والتفكر ، وذاك يعين على الفهم دون رب فيستنير القلب بنور معرفة الله عكس الاسراع فى القراءة ، والترتيل والتدبر لا يتعارضان مع ترقيق الصوت ، ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يحاولون الجمع بين ترقيق الصوت وتجويد التلاوة ، وقد روى أن عبد الله بن مسعود كان قارئاً نديّ الصوت جيّد التلاوة ، وللتلاوة الجيدة بالصوت الندى أثرها لدى القارئ والمستمع فى فهم القرآن وإدراك أسرارهِ فى خشوع وضراعة ، وقد روى أن رسول الله ﷺ قال : «من أحب أن يقرأ القرآن غصّاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم» يعنى ابن مسعود ..

فالترقيق وجمال الصوت أو نداوته ليس مقصوداً لذاته ،

(٢٢) ابن كثير - مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .

إنما المقصود أن يكون ذلك عوناً للقارئ في فهم القرآن
وادراك أسرارهِ ، وللمستمع كذلك ، والا لخرجت
القراءة - مهما كانت درجة جودتها وتنظيمها - عن دائرة
الترتيل المطلوب للقرآن الكريم ، والذي أمر الرسول ﷺ به
﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ وقد بين له الغرض من تلاوته وتلاوة
المسلمين أجمعين في قوله تعالى : ﴿كتاب أنزلناه مبارك
ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ .

وقد روى عن الحسن البصري أنه قال : والله ما تدبره
بحفظ حروفه واضاعة حدوده ، حتى أن أحدهم ليقول :
والله لقد قرأت القرآن فما اسقطت منه حرفاً ، وقد أسقطه
والله كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل» (٢٣) .
ولست أدري ماذا كان سيقول البصري حيال ما شغل
به بعض المسلمين من زخارف وبهارج (مهرجانية) للقرآن
الكريم يتباهى فيها بالحفظ والاستيعاب دون وعي أو فهم ،
ودون تطبيق أو عمل !!!

وكما قلنا من قبل : الغلو أو المبالغة في التجويد مذمومة ،
لأن الخروج بأي شيء عن حده ينقلب به إلى ضده ،
كذلك الغلو والمبالغة في التنعيم والتطريب ، خاصة ما ابتدع
من تلحين في القراءة ، وقد ذكرها الرافعي بقوله : «ومما
ابتدع في القراءة والأداء هذا التلحين الذي بقي إلى اليوم
يتناقله المفتونة قلوبهم ، وقلوب من يعجبهم شأنهم ،
ويقراءون به على ما يشبه الايقاع ، وهو الغناء التقي ، ومن

(٢٣) الزمخشري - الكشاف ج ٤ - ص ٧٠ .

أنواعه عندهم في أقسام النغم «الترعيد» وهو أن يرعد القارئ صوته كأنه يرعد من البرد أو الألم . و «الترقيص» وهو أن يروم السكوت على الساكن ، ثم ينقر مع الحركة كأنه في عدو أو هرولة و «التطريب» وهو أن يترنم بالقرآن ، ويتنغم به ، فيمد في غير موضع المد ، ويزيد في المد أن أصاب موضعه ، و «التحزين» وهو أن يأتي بالقراءة على وجه حزين يكاد يبكي مع خشوع وخضوع . و «الترديد» وهو رد الجماعة على القارئ في ختام قراءته بلحن واحد على وجه من تلك الوجوه .

وإنما كانت القراءة تحقيقاً - وهو إعطاء كل حرف حقه على مقتضى ما قرره العلماء مع الترتيل وتؤدة - أو حذراً - وهو إدراج القراءة وسرعتها مع مراعاة شروط الأداء الصحيحة ، أو تدويراً - وهو التوسط بين التحقيق والحذر ...» (٢٤) .

فلتكن قراءتنا قراءة تدبر وتفكر ، وألا نكون من الغافلين المخالفين للقرآن الكريم رغم تلاوتهم له والذين يلعنون أنفسهم بأنفسهم عندما يتلون قول الله عز وجل : ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ وقوله : أَلَا لعنة الله على الظالمين﴾ فالذى يعرض نفسه لهاوى الردى والهلاك والظلال يكون قد ظلمها وتجنّى عليها ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ .

كما نشير إلى أن هذا التدبر الذى نحض عليه لا يتنى مزية

(٢٤) مصطفى صادق الرافعى - اعجاز القرآن ٧٧ .

أجر التلاوة ولو من غير فهم ، فتلك خاصية تميز وتنفرد بها القرآن الكريم دون سواه من سائر العبادات ، بما في ذلك الصلاة التي هي عماد الدين ؛ إذ ليس للمصلي من ثوابها إلا بمقدار ما عقل منها ، ومن ثم كان لا بد من جبر ما نسى في الصلاة - زيادة أم نقصانا - بسجدة في سهو ، بخلاف تلاوة القرآن فليس فيها سجدة سهو ، ولكن فيها سجدة للتلاوة ، وهي ليست لجبر خطأ أو نسيان ، ولكنها للتبجيل والتعظيم لله عز وجل والاقرار بخالقيته حيث يقول الساجد في سجوده للتلاوة : سجد وجهي للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، بحوله وقوته ، فتبارك الله أحسن الخالقين ..

(هـ) لماذا انفرد القرآن الكريم بخاصية الأجر؟

نرى لماذا انفرد القرآن الكريم بتلك الخاصية ، خاصة الأجر لمجرد التلاوة ؟
 هناك حكم سامية وراء انفرد القرآن الكريم بخاصية الأجر لمجرد التلاوة ، نجد أبرزها ماثلاً في الجواب التالية : (٢٥)

١ - توفير عامل مهم من عوامل المحافظة على القرآن وبقائه مصوناً من التغيير والتبديل اللذين أصابا كتب الله من قبل ، ذلك أن هذا الأجر العظيم الذي منحه الله من يتلو كتابه العزيز ، ولو من غير تفهم لمعانيه من شأنه أن يرغب الناس في قراءة القرآن الكريم ويدفعهم إلى

(٢٥) محمد عبد العظيم الزرقاني - مناهل العرفان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣١ .

الاكثار منها ، وبحركهم إلى استظهاره وحفظه ، إذ أن انتشار القراءة والقراء والحفظ والحفاظ يجعل القرآن كثير الدوران على الألسنة ، واضح المعالم في جميع الأوساط والطبقات ، عند ذاك لا يمرؤ أحدٌ على تغيير شيء فيه ، وإلا لقي أشدَّ العنت من عارفيه ، كما حدث لبعض من حاولوا هذا الاجرام من أعداء الاسلام .

٢ - إيجاد وحدة لغوية للمسلمين تُعزِّز وحدتهم الدينية وتيسر وسائل التفاهم والتعاون فيما بينهم ، فتقوى بذلك صفوفهم وتعظم شوكتهم وتعلو كلمتهم ، وتلك حكمة إلهية عالية فطن لها الإسلام على يد هذا النبي الأمي ، وقد نجحت هذه الحكمة نجاحاً باهراً منذ القدم ، حيث انضوت أمم كثيرة مختلفة اللغات تحت اللسان العربي ، ونبغ منهم عدد كبير سبقوا كثيراً من العرب في علوم القرآن وعلوم لغة القرآن .

٣ - استدراج القارئ إلى التدبر والاهتداء بهدى القرآن الكريم عن طريق هذا الترغيب المشوق ، وبوساطة هذا الأسلوب الحكيم فإن من يقرأ القرآن في يومه وهو غافل عن معانيه يقرؤه في غده وهو ذاكر لها أو شك أن يعمل بعد غد بهديها ، وهكذا ينتقل القارئ من درجة إلى درجة أرقى منها حتى يصل إلى الغاية بعد تلك البداية ...

وبالطبع من يقرأ القرآن ولا يعمل بمقتضاه يكون شأنه شأن اليهود الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل

أسفاراً^(١) أو يكون كمن قال فيهم رسول الله ﷺ : «كم من قارئ للقرآن والقارئ يلعبه» .
وإذا أمعنا النظر فيما رواه أبوهريرة رضى الله عنه من أن النبي ﷺ قال : «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» لا تضح لنا أن الحديث يرغب في تلاوة القرآن الكريم وبحث على العمل به ، وفي الوقت نفسه يحذر من الركون والاعتماد على النسب والحسب تماماً مثل التحذير من الركون والاعتماد على حفظ القرآن واستظهاره دون تدبر ودون تمسك أو عمل به ؛ إذ لابد لحامل القرآن من تدبره والعمل بمقتضاه في جميع جوانب حياتهم ما سنعلم ذلك - وإلا كانوا كمن قال فيهم ابن عباس : «ولو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغي لأحبهم الله ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس» .
أى أن القرآن عندئذ لا يحقق الهداية ولا يجلو ما في القلب من صدأ واران ؛ الآن حامله لم يسلك في حياته اليومية وفق توجيهات القرآن الكريم ، ولكنه يعمل وفق هواه ناسياً أو غير آبه بقوله تعالى :
﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ فلم يجاهد هوى نفسه الأمارة

(١) سورة الجمعة الآية ٥ .

بالسوء ، لذلك لا تنفعه تلاوة ولا حفظ طالما لم يتدبر القرآن الكريم ولم يعمل بمقتضاه ، ذلك لأن التلاوة عبادة ، وليس الغرض من العبادات كلها تحقيق أى عائد منها لله سبحانه وتعالى ، فهو الغنى الحميد ، ولكن الغرض تحقيق أى عائد للعابد ذاته خاصة الإنسان الكنود الجحود ، بغية السمو والارتفاع به عن الدرك الأسفل عبر قلبه ومعنوياته ، فالصلاة تطهير للقلوب وتركيز للنفوس ، والصوم تقوية للإرادة وتنمية لوجدان فعل الخير الذى ينأى بصاحبه عن الشح والتقتير والبخل وغيرها من الأدواء الاجتماعية التى تعوق تقدم المجتمع وتهدم بنيانه فتهد كيانه .

الفصل الثانى

القرآن الكريم وهدايته للبشرية

- ١ - القرآن نفحة ربانية لبنى البشر .
- ٢ - كيف يمكن الانتفاع بالقرآن الكريم ؟
- ٣ - وسيلة القرآن فى الدعوة إلى مقاصده .
- ٤ - القرآن والإيمان بالأديان المنزلة .
- ٥ - الإنسان فى القرآن عبدالله وخليفته فى الأرض .

١ - القرآن نفحة ربانية لبنى البشر :

من تعريفنا بالقرآن الكريم تأكد لنا أنه النور الإلهى الذى يخرج الناس - كل الناس - من الظلمات إلى النور ، لذلك استطاع منذ نزوله وإلى اليوم أن يأسر القلوب والعقول ، فما السر فى ذلك يا ترى ؟

أعتقد أن ذلك راجع إلى أن القرآن لم يكن من صنع البشر ، إذ لو كان نتاج فكر بشرى محدود مكدود لكان لا بد له من أن يندثر ، أو أن يظهر بطلان ما يشتمل عليه من أفكار وتوجيهات يتضح تخلفها بمرور الزمن ، ولكنه ليس من صنع بشر ، بل من لدن حكيم خبير بعباده أينما كانوا ، وفى أى زمان وجدوا ، ومن ثم بقي كاملاً شاملاً صالحاً لكل زمان ومكان .

جاء القرآن الكريم شاملاً جميع جوانب الحياة الدنيا التى وصفت فى كثير من آياته بأنها لعب وهوى وتكاثر فى الأموال

والأولاد ، كما وصفت الأموال بأنها زينة الحياة ، ولكن آية حياة ؟
هى الحياة الدنيا دون رب ، كما تحدث القرآن حديثاً شاملاً لجميع
جوانب الآخرة التى وصفت بأنها خير وأبقى ، نعم إنها الباقية
الدائمة - ومن ثم رغب القرآن الناس فى العمل بهمة لمثل تلك
الحياة .

هذا الاكتمال وذلك الشمول لجوانب الحياة الدنيا والآخرة هى
سر استمرار أسر القرآن الكريم للقلوب والعقول - فى نظرنا - وهو
سبب صلاحيته لكل زمان ومكان ، ومن ثم كان فضله عظيماً
ونفعه عميماً ، ولولا عناية الله بعباده الذين هداهم إلى القرآن
وبالقرآن وجعل فى قلوبهم قوة تساعد على حمل القرآن ليتدبروه
ويعتبروا به فيكونوا على ذكر دوماً مما فيه من دعوة إلى عبادة الله
وحده وطاعته وأداء حقوقه وفرائضه - لولا تلك العناية - لضعفت
القلوب ولدكت بثقل القرآن الذى تتصدع له الجبال ، قال تعالى :
﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ
اللَّهِ﴾^(١) فأين قوة القلوب من قوة الجبال ؟ لا مقارنة ، ولكن الله
رزق عباده من القوة على حمل القرآن ما شاء أن يرزقهم فضلاً منه
ورحمة .

وبهذا نستطيع أن نؤكد القول بأن القرآن الكريم نعمة إلهية
ونفحة ربانية لبنى البشر ، وقد جاءت الأحاديث النبوية مؤكدة هذا
المعنى من خلال بيان فضل القرآن وأهميته وحث المؤمنين على العناية
به ، روى البخارى عن عثمان بن عفان عن النبي ﷺ قال :
«خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وروى مسلم عن عائشة رضى الله

(١) الحشر : ٢١ .

عنها أنها قالت قال رسول الله ﷺ : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجور» وغير ذلك من الأحاديث التي تؤكد فضل القرآن الكريم وتحض على تلاوته .

استحق القرآن الكريم تلك الأفضلية : فكان نعمة للبشرية ، لأنه موجّه للناس كلهم دون تقييد بعنصر عرقى أو جنسى أو اقليمى ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

وقوله ﴿وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ هو أساس فكرة التوحيد الذى هو جاع دعوة القرآن الكريم ، بل إن فكرة التوحيد فكرة مفطورة في النفس الإنسانية ، حيث يولد كل إنسان على الفطرة النقية السليمة فأبوه وأبوه يهودانه أو يمجسانه ، وتفهم هذه الفطرة الإيمانية من خلال قول الله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ (٣) .

وقد كان للمفسرين رأيان في تفسير هذه الآية ، لكل منهما مغزاه ودلالته ، والرأيان هما :

الأول :

أن الله لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر ،

(٢) البقرة : ٢١ - ٢٢ .

(٣) الأعراف : ١٧٢ .

وأخذ عليهم العهد بأنَّه ربُّهم فأقروا وشهدوا بذلك ، وقد روى هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة ، وقال به جماعة من الصحابة .

الثانى :

إن هذا من باب التمثيل والتخييل ، والمعنى أنه سبحانه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكانه أشهدهم على أنفسهم ، وقال لهم أأست بريكم قالوا بلى ، وقد اختار هذا الراى كل من الزمخشري وأبوحيان وأبوالسعود^(٤) وذكر ابن كثير أن مجموعة من السلف والخلف قالوا أن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار الجاشعوى ، ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع ، وقد فسر الحسن الآية بذلك ، قالوا ولهذا قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ ولم يقل من آدم وقال : ﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل من ظهره ، ﴿ ذُرِّيَّتِهِمْ ﴾ أى جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ الْأَرْضَ ﴾ وقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ الْخُلَفَاءَ الْأَرْضَ ﴾ وقال : ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ قالوا بلى أى أوجدتهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالوا ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله : ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ الآية ، وتارة تكون حالا كقوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ﴾

(٤) محمد على الصابونى - صفوة التفاسير - ج ١ ص ٤٨١ (حاشية) .

الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴿٥﴾ أى حالهم شاهد عليهم بذلك ، لأنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى : ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ (٥)

وهذا ما ذهبنا إليه عندما قلنا أن فكرة التوحيد فكرة مفطورة في الإنسان ، وتلك حقيقة لا مرأى فيها ، بدليل أن العرب المشركين رغم شركهم وعنادهم واصرارهم على الكفر فإنهم كانوا يعترفون بوجود إله أعظم ، لكنهم لا يدعون هذا الاله الأعظم إلا عند ما يحيط بهم خطر كبير ، عند ذاك يدركون أنه لا ملاذ لهم إلا به ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وقد حكى لنا القرآن ذلك في قوله تعالى : ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ (٦) .

إذن الفطرة هي التوحيد ، والتوحيد هو أساس دعوة القرآن للبشرية جمعاء ، وقد أقام لهذه الدعوة كل الأدلة التي تفحم كل جبار عنيد ، وترد كل شيطان مرید ، كما أقام الأطر الكبيرة والقواعد العلمية التي توجه نشاط الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته الوجهة الحققة ، سواء أكان ذلك في علاقاته مع أهله وعشيرته ، أو في علاقته مع أخيه في الإنسانية ، أو في علاقاته مع خالقه وموجده ، والذي بيده الأمر كله .

ومن ثم نقول : القرآن هداية لبني البشر ، إذا تمسكوا به وترسموا أطره وقواعده الكلية التي وضعت لكل فرع من فروع

(٥) ابن كثير - مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٤ - ٦٥ .

(٦) يونس ٢٢ .

النشاط الإنساني خطأ واضحاً ، أو خطأ عريضة تُركت تفاصيلها لعقل الإنسان وفكره المتجدد المتغير ؛ لتأتي التفاصيل والفروع - متجددة في كل زمان ومكان فيما يتعلق بجزئيات أمور الدنيا .
ونشير هنا إلى أن المشركين الذين عارضوا رسول الله ﷺ وناصبوه العداوة لم يكن اعتراضهم منصباً على الأطر والقواعد التي نظمت فروع النشاط الإنساني قدر اعتراضهم على فكرة التوحيد ، حيث زعموا أنهم لم يسمعوا بها ولا في الديانات السماوية السابقة كالمنسيحية التي عرفت جزيرة العرب ، وقد سجل القرآن الكريم ذلك الاعتراض على لسان المشركين : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ (٧) ﴿ مَا سَمِعْنَا بهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ (٨) . ولا ريب في أن زعمهم هذا ما هو إلا فرية ليس فيها مزية ؛ إذ أن الأديان السماوية كلها كانت تدعو إلى التوحيد الخالص وترفض الوثنية والشرك ، قال تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون . وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ .. ﴾ (٩) .

نعم كل الكتب السماوية كانت تدعو إلى توحيد الألوهية ، إلا أن معنى الألوهية في القرآن الكريم «يمتاز بقوة جارفة وأخاذا تصرف المستمع للقرآن عن مشاغله المادية الكثيرة ، وتحلق به دفعة واحدة إلى عالم الروح السامي» (١٠) .

(٧) ص : ٥ .

(٨) ص : ٧ .

(٩) الأنبياء : ٢٤ - ٢٦ .

(١٠) د . محمد عبدالله دراز - مدخل إلى القرآن الكريم ص ٨٦ .

وصرف المستمع عن المشاغل المادية بغية السمو به إلى الدرجات العلى أمرٌ واضح من خلال كثير من آى الذكر الحكيم ، من تلك الآيات قوله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا . رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظلمون قِتِيلًا﴾^(١١) وقوله : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١٢) يخرجونهم من النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

وقوله : ﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾^(١٣) وقوله : ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(١٤) وقوله : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١٥)

هذه الآيات وغيرها ، بل القرآن في مجمله يرتفع بالإنسان حينما يستمسك بالقرآن ويتدبره حق التدبر ، يرتفع به إلى عالم الروح

(١٤) البقرة : ٢٦٦ .

(١٥) البقرة : ٢٦٨ .

(١١) النساء : ٧٧ .

(١٢) البقرة : ٢٥٧ .

(١٣) البقرة : ٢٦٢ - ٢٦٣ .

السامى فيستشعر - دوماً - بأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأنها لا تقارن بالآخرة رغم ما فيها من زخارف وبهارج ، ومن ثم لا يعطيها كل وقته وجهده ، كما لا يهملها ؛ لأنها مطية الآخرة ، ولأنها دار الابتلاء والاختبار ، ولا بد من اجتياز الاختبار ، وأعتقد أن أكبر امتحان يواجهه المؤمن في دنياه هو امتحان المال ، ﴿وإنه لحبّ الخير لشديد﴾ ﴿أهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ ﴿إنا أموالكم وأولادكم فتنة﴾ .

يُفْتَنُّ الإنسان بالفقر والحرمان من المال ، يفتن بالغنى وتكديس الأموال ، إلّا من شرح الله قلبه بالإيمان ، وخرج بنور القرآن من الظلمات إلى النور ، فإنه سيستثمر غناه استثماراً طيباً ، فينفق في سبيل الله ، ولا يتبع ما أنفقه مثلاً ولا أذىً ، هو إذن يقرض الله قرضاً فيضاعفه له .

هذا غنىٌ شاكرٌ متحدثٌ بأنعم الله ، وثوابه عند الله مدخر ، وذاك فقيرٌ صابرٌ راضٍ بما قسمه الله له نتيجة جهده وعمله ، فتوابه عند الله مدخر أيضاً ، لقاء قناعته وصبره ، وسيعوّض ما افتقده في الدنيا من متاع ، على حين تكوى جباه الذين كنزوا ولم ينفقوا ويقال لهم : هذا ما كنزتم ، أما الفقير الجازع فإنه يظل في حيرة في دنياه عندما يمد عينيه إلى ما مُتّع به الآخرون في حسرة وألم ، وربما أمره الشيطان بالفحشاء والمنكر ، بل ربما تزعزعت عقيدته واهتز إيمانه بغواية الشيطان له ، فيتساءل قائلاً : لماذا يبقى المؤمن فقيراً ؟ لماذا ينشد الطعام فلا يجده سهلاً ميسوراً ؟ ولا يجد أطايبه وفيراً ؟ ولماذا يلتمس الغنى فيتأبى عليه ؟ ولماذا تجرى الأموال من تحت أقدام أولئك الكفار أنهاراً ؟ هل اقتضت سنة الله أن يتلازم الكفر والغنى ، والإيمان والفقر ؟ وهل من العدل أن يجوع المؤمن ويتخم

الكافر؟ وغيرها من الأسئلة الحائرة .

أما الجوع فلا ، لم يدع الإسلام المسلم إلى الاستسلام لعوامل المرض أو الجوع والفقر ، ولكن حصّه على العمل ، وأمره به أمراً ، ﴿قُلْ اَعْمَلُوا فَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ «لئن يَحْتَطَبْ أَحَدَكُمْ فَيَأْكُلْ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ لَمْ يَعْطَوْهُ» وجعل في أموال الأغنياء حقّ معلومٌ للسائل والمحروم .

وما الغنى والفقر إلّا سنّة من سنن الله في خلقه ، المؤمنين منهم والكافرين ، وهذه السنة تُؤكد أنّ الناس أمةٌ واحدة ، لها ربٌّ واحد ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ فما على المؤمن إلّا أن يجِدَ ويعمل ثم يبتعد بعقله وفكره عن وسوسة الخناس في حال غناه أو فقره ، ليسعد نفسه وأهله : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٦) .

٣ - كيف يمكن الانتفاع بالقرآن الكريم :

ابتعد كثير من المسلمين - في هذا الزمان - عن القرآن الكريم وقال بعضهم : كيف يمكننا الانتفاع بالقرآن الكريم وقد بعد العهد بيننا وبينه ؟ وقال آخرون : كيف نقنع أنفسنا بالعودة إلى القرآن الكريم وقد بعد بيننا وبينه ؟ وقال آخرون : كيف نقنع أنفسنا بالعودة إلى القرآن الكريم وذاك أمر يقتضي منا رجعة إلى الوراء ؟ بينا العالم من حولنا يتقدم بخطوات كبيرة إلى الأمام .

هكذا يقولون ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ؛ ذلك لأن

(١٦) القصص : ٧٧ .

العودة إلى القرآن لا تُعدُّ رجوعاً أو تفهقراً في نظر أى منصف ، إنما هى نهضة وتقدم ودعوة إلى رأب صدع الأمة التى تفككت وتفرقت بعد أن كانت خير أمة أخرجت للناس ، وهذه الخيرية لم تكن موجودة قبل الإسلام بل حتى مفهوم «الأمة» لم يكن موجوداً قبل الإسلام بهذا المعنى ولكن القرآن الكريم هو الذى حقق كل ذلك يشهد بهذا ما سجّله المسلمون وغير المسلمين ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، يقول الباحث فيليب دى طرازى : «ما كاد يظهر الإسلام حتى أحدث القرآن فى أنصاره وأتباعه انقلاباً عجيباً غريباً لم يكونوا يتوقعونه على الإطلاق ، فبعد ما كانوا منقسمين إلى قبائل وبطون لا يعرفون من الشئون الاجتماعية شيئاً ، دأبهم الغزو والنهب والقتل وأخذ الثأر أصبحوا بقوة القرآن أمةً متوحدةً فى لغتها ودينها وشرعتها وسياستها» (١٧) .

وما ذاك إلا لأن القرآن الكريم قد اشتمل على الأسس والأهداف السامية التى تكفل التقدم وتتيح فرص التوحيد والرق والتطور فى شتى المجالات .

أما ما يتشدد به المرجفون من قدم ورجعية فترى أنه لا ينبى عن القرآن الكريم الأسس والأهداف السامية التى ذكرناها ؛ لأن الدعوة إلى استلهاهم القديم لا يمكن أن تكون شاذة لجرد قدم ما يدعى إليه ، ولا يمكن أن تكون دعوة إلى التأخر أو التفهق كما زعموا ، وإلا لما كان لميراث الأمم والشعوب أية قيمة أو فائدة تذكر ، وكيف يكون هذا والبشرية كلها سلسلة متصلة الحلقات وأجيال متوائمة الصلات يمد بعضها بعضاً ، ويرث بعضها بعضاً ، وتظل أولاهم ممتزجة بأخراهم ، وأخراهم مقتبسة من أولاهم ، إلى أن

(١٧) فيليب طرازى - مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق - مج ١٩ (١٩٤٤) .

يرث الله الأرض ومن عليها .

إذا كان الرجوع إلى ميراث الأمة الفكرى والحضارى شيئاً مقبولاً رغم قدم العهد ، وكان لابد من تناقله واستلهامه ، فكيف يكون الحال بالنسبة للقرآن الكريم ، الذى هو من الله العلى القدير ، خالق الشعوب ومبدع حضارتها ؟ ألا يكون مقبولاً ؟ بلى . نعم إذا كان استلهام القديم من نتاج الفكر البشرى المحدود المكدود مفيداً لا بد أن يكون الرجوع إلى القرآن أكثر فائدة وأكثر تحقيقاً للسعادة عبر التقدم والتطور الذى يدعو إليه القرآن وفق الخطط والأطر المرسومة ، ولكن لن يتحقق شئ من ذلك إلا إذا فهم القرآن حقَّ الفهم ، وتمَّ التمسك به والسير على هديه ، فهو كتابٌ هداية باقية دائمة ، وهدايته تتحقق عبر مقاصده التى تدور حول ثلاث نواح بارزة هى :

١ - ناحية العقيدة . ٢ - ناحية الأخلاق . ٣ - ناحية الأحكام .
وهداية البشرية جمعاء إنَّها تتحقق عبر هذه النواحي الثلاث ؛ ذلك لأن العقائد تطهر القلوب من بذور الشرك والوثنية ، وتربطها بمبدأ الروحية الصافية ، والأخلاق تهذب النفوس وتركيها فترفع من شأن الفرد والجماعة ، أمَّا الأحكام فإنَّها تنظم علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، وقد جاءت الأحكام الإسلامية ماثلة فى الأطر الكبيرة لأحكام العبادات ، والمعاملات ، والحرب ، والسلم ، وما يتبعها من غنائم وأسرى ومعاهدات ، وما إلى ذلك مما يدخل فى إطار الأحكام الدولية ، إلا ما اقتضت الحكمة الالهية تفصيله وتوضيح دقائقه وجزئياته تولى القرآن تفصيله .

وليستحقق الانتفاع بالقرآن الكريم لا بدَّ من تفهم كل تلك الجوانب ، وبمقدار الفهم يكون النفع وتكون الفائدة ؛ إذ كلُّما

تضائل الفهم وقصر قلّ النفع وضمّر ، وكلّما اتسعت دائرة الفهم انداحت دائرة النفع .

ونشير هنا إلى أن بعض الباحثين توصّلوا إلى أن هداية القرآن قد انداحت دائرتها منذ القدم فانتظمت الأنس والجن ، لخصائص ومميزات - انفردت بها تلك الهداية فقالوا : «... وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة ، وتامة ، وواضحة ، أما عمومها فلأنها تنتظم الانس والجن في كل عصر ومصر ، وفي كل زمان ومكان ، قال سبحانه وتعالى : ﴿وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ وقال جلت حكمته : ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولننذر أم القري ومن حولها﴾ وقال عز وجل : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ وقال عمت رحمته : ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُعزّركم من عذاب أليم ، ومن لا يجيب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾ (١٨) .

وأما تمام هذه الهداية فلأنها احتوت أرق وأوفى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله للناس ، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها ، وجمعت بين مصالح البشرية في العاجلة والآجلة .

وأما وضوح هذه الهداية فلعرضها عرضاً رائعاً مؤثراً توافرت فيه

(١٨) الأحقاف : ٢٩ - ٣٢ .

كل وسائل الإيضاح وعوامل الاقتناع ، أسلوب فذٌ معجزٌ ببلاغته وبيانه ، واستدلالٌ بسيطٌ عميق ، يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق ، وامثالُ خلافة تُخرجُ أدقَّ المعقولات في صورة - أجلى الملموسات ، وحكمٌ بالغاتٌ ، تبهّر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع^(١٩) .

ولا بد من معرفة كل هذه الجوانب وغيرها لتتسع دائرة النفع بالقرآن الكريم ، فترتقى حياة الناس وتتطور ، بغية عمارة الكون ، تلك العمارة التي جعل الله الإنسان خليفة في الأرض من أجلها .

٣ - وسيلة القرآن في الدعوة إلى مقاصده :

الوسائل التي اعتمد عليها القرآن الكريم في الدعوة إلى مقاصده كثيرة متنوعة منها ما يلي :

١ - الارشاد إلى النظر والتفكير والتدبر في الآيات الانفسية والآفاقية ليدرك الناظر عظمة الله وابداعه في خلقه ، قيمته وقلبه إيماناً بوجود الله ووحدانيته ، يدعم ذلك الإيمان ويقويه الاقتناعُ العقلي بعد التأمل والتدبر في مخلوقات الله ، وفي هذا ما فيه من تقدير وتكريم للعقل البشري .

٢ - قَصَصُ الأولين ، أفراداً وأممًا ، الصالحين منهم والظالمين ، بغية العظة والاعتبار ، وبغية التوجيه نحو ادراك سنة الله في معاملة الأمم السابقة ؛ ذلك لأن القصة في القرآن الكريم لم تكن للتاريخ وحسب ، كما يظن - أو لتحديد - المكان والزمان والأشخاص وترتيب الوقائع والحوادث وتعقيدها ، ثم حلها وانفراجها وكفى ، إنما كانت إلى جانب ذلك وفوق ذلك للعظة

(١٩) محمد عبد العظيم الزرقاني - مناهل العرفان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥ .

والاعتبار والتوجيه والارشاد والهداية ، ولم تك قط للتسلية وإزجاء الفراغ كما يتوهم .

٣ - إيقاظ الشعور الباطني في الإنسان ليندفع بوحى هذا الشعور إلى التساؤل عن مبدئه ، وعن مادته ، وعن حياته ، وعن مآله ومصيره حتى يصل إلى الاعتراف بالحق جل جلاله ، مدبر الأمر ومصرفه ، ربّ السموات والأرض ، وتلك هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

٤ - أسلوب الانذار والتبشير أو الوعد والوعيد ، وللقرآن الكريم فى ذلك طريقان :

أ) الوعد والوعيد : حيث وعد المؤمنين الصالحين بعموم السلطان والتمكين فى الأرض ، وأنذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك وتسليط الأعداء .

ب) الترغيب والترهيب : حيث شوقهم إلى نعم الآخرة الدائم الصافي وخوفهم من الكفر والافساد فى الأرض والطغيان على عباد الله .

٥ - ضرب الأمثال ، حيث اتخذ المثل وسيلة من وسائل التقريب والبيان لما يجب أن تفعل به النفوس ، وتؤمن به القلوب ، من ذلك ما جاء فى سورة البقرة حيث جعل الشجرة الطيبة مثلاً للكلمة الطيبة ، وضرب الذبابة والعنكبوت مثلاً لمعبوداتهم التى يعبدونها لتقربهم إلى الله زلنى .

ولم تقف تلك الأمثال القرآنية عند دائرة التقريب ، إنما ارتفعت إلى دائرة التحدى والافحام والالهام ، كما فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبْ مَثَلٌ فَاستمعوا له إِنَّ الَّذِينَ تدعون

من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم
الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴿٢٠﴾ .

فهذا مثل كان ولا يزال يحمل في طياته عناصر التحدى
والاعجاز للعلم والعلماء على السواء ، وسيظل كذلك رغم
تطور العلم والتكنولوجيا ، إذ من ذا الذى يستطيع أن يخلق
الذبابه رغم تفاهتها وصغر حجمها ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن
يرد الحياة التى قد تسبب الذبابه فى سلبها - بإرادة الله - عن
طريق الأمراض التى تنقلها ؟ لا أحد . «إذ لو سلبتك الذبابه
ذرة من النشا من طعامك فإن عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لا
يستطيعون استرداد هذه الذرة من أمعائها ، لأنها تتحول فوراً
إلى سكر بفعل الخائز الهاضمة فما أضعف الطالب والمطلوب ،
وما أضعف عبقرى الكيمياء ، وما أهون الذبابه وما أنفه ذرة
النشا فى عالم هائل بلا حدود» (٢١) .

٦ - الدعوة إلى التوازن الروحى والمادى ، حيث حضَّ المؤمن على
ألا يجعل همه الأوحده هو المتع المادية فى الحياة الدنيا ، وفى
الوقت نفسه لا ينصرف عنها أو يعتزلها ، قال تعالى : ﴿كلوا
من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحل عليكم غضبي
ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ (٢٢)

قد يقال أن الدعوة إلى التوازن هى سبب تخلف الشعوب
الإسلامية ، وقد يستدل على هذا الزعم بواقع المسلمين مقارناً

(٢٠) الحج : ٧٣ .

(٢١) د . مصطفى محمود - القرآن (محاولة لفهم عصرى) ص ٢٢١ .

(٢٢) طه : ٨١ .

بواقع الكافرين في الدنيا ، ونحن نرى أن المقارنة خاطئة في الأساس ، لأن التدئين لم يكن موجوداً عند كثير من مسلمي اليوم الذين عرفوا بالكسل والتواكل ، والاسلام لم يأمرهم بشيء من ذلك قط ، إنما يدعوهم إلى العمل الدؤوب والمسلك الحميد ، وإلى الإيمان الصادق الذي يدعم ذلك التوازن المنشود ، أما ما في الغرب من تقدم وحضارة فإنها ليست بالحضارة الحققة ، إضافة إلى أنها ناقصة تقف على رجل واحدة ، حيث عنيت بالجانب الشكلي المظهرى للإنسان ، وأهملت جوهر الإنسان وحقيقته ، ومن ثم كثرت المشكلات الاجتماعية لدى أهل هذه الحضارة المزعومة ، فارتفعت نسبة الجنون عندهم ، يدعوهم إلى العمل الدؤوب والمسلك الحميد ، وإلى الإيمان الصادق الذي يدعم ذلك التوازن المنشود ، أما ما في الغرب من تقدم وحضارة فإنها ليست بالحضارة الحققة ، إضافة إلى أنها ناقصة تقف على رجل واحدة ، حيث عنيت بالجانب الشكلي المظهرى للإنسان ، وأهملت جوهر الإنسان وحقيقته ، ومن ثم كثرت المشكلات الاجتماعية لدى أهل هذه الحضارة المزعومة ، فارتفعت نسبة الجنون عندهم ، وازدادت نسبة المقبلين على تعاطى المخدرات بين الشباب المتعطل في بريطانيا ، ناهيك عما في أمريكا وفرنسا من فساد وإباحية ترتعش لها فرائض العباد ، إلى جانب السلب والنهب لخيرات الأمم وحريرات الشعوب وتدمير الدسائس ووضع العراقيل في طريق تقدم كثير من الشعوب خاصة الشعوب الإسلامية .

فأى تقدم وأية حضارة تلك التى تبيح للإنسان أن يقتل

نفسه ، بل تتيح له أن يدوس على كرامة أخيه الإنسان فيحرمه الأمن ، والحرية بل صفة الآدمية تارات .

وما قد يترأى من مزايا إنسانية لدى هؤلاء فلأنها هي من أوليات التعاليم الإسلامية ، أو من بقايا تعاليم الكتب السماوية التي حرفت ثم نسخت ، وقد قال رسولنا صلوات الله وسلامه عليه : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» . ولكننا عشنا زماناً نعيشو إلى أضواء الناس - ولم نكن ندري أن الزيت الذي في قناديلهم هو زيتنا ، وعشنا زماناً نخلى فيه كثير من المسلمين عن كثير من تلك الفضائل الأخلاقية ، وعشنا زماناً وجد فيه من يحسبون أن التدين الحق هو «الكهنوت» أو التتوقع والابتعاد عن دائرة العلم والعمل ، وحاشا أن يكون التدين الحق كذلك ، خاصة في الإسلام الذي يأمر بالعلم والعمل ، ويرى الإنسان المسلم على نكران الذات وحب التضحية من أجل الآخرين دون طمع أو حقد أو حسد ..

ونعتقد أن خشية الله في السر والعلن ، في المتجر والمصنع ، في الحقل والمدرسة ، في كل زمان ومكان هو التدين الحق ، ولا يمكن الوصول إلى مثل هذا التدين إلا عن طريق القرآن الكريم الذي يجب أن نتدبره وأن نتفياً ظلاله دوماً لنستمد منه النور لدرينا والأمل لحياتنا التي تنوخي فيها ولها التوازن ، بين المادة والروح ، حتى لا نكون من الأخسرين أعمالاً ، في الدنيا والآخرة ، ولا نتيج الفرصة للمغرضين الملحدون من أمثال «م . ر . ر . رحاتوف» ، كاتب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بروسيا - سابقاً - حيث ألف كتاباً أو كتيباً في سبعين صفحة بعنوان : (هل يمكن الاعتقاد بالقرآن) كان فيه

من الذين يهرفون بما لا يعرفون (٢٣) بغية الدس والتشويه للنيل من الإسلام والمسلمين ، كما قرر الأستاذ عبدالله كئون .

٤ - القرآن والإيمان بالأديان المنزلة :

كلما تلونا القرآن الكريم تلاوة تدبر تأكدت لنا حقيقة لا مرأ فيها ، هي أن القرآن الكريم ماجاء ليناقض الموسوية والعيسوية أو ينازعها الحقائق الثابتة والتي تعتبر قطب الرchy في كل دعوة إلى الله ؛ إذ أكد القرآن في أكثر من موضع تأكيداً قاطعاً أن المؤمن هو من آمن برسالة محمد ﷺ وفي الوقت نفسه يؤمن بموسى وعيسى وجميع الرسل ، ويقرهم دون تمييز ، بل يشعر في قرارة نفسه بوجوب الأدب معهم جميعاً دون تفریق ، لأنهم رسل الله ، ولأن القرآن الكريم قد وجهه إلى ذلك ، قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرَسُولُهُ لَا يَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (٢٤) .

ولم يكن إيمان المسلم بالرسول السابقين إيماناً مجاملةً أو تقدير شكلي ، ولكنه إيمانٌ بمبادئهم جميعاً ، واستسلامٌ لإرادة الله التي أعلنت متتابعةً عبر أولئك الرسل بغض النظر عن الزمان أو المكان الذي كانت فيه رسالة الرسول ، وهو لا يستند في هذا الإيمان إلا على ما جاء في القرآن الكريم ووفق توجيهاته ، قال تعالى : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرُّقُ بَيْنَ

(٢٣) عبدالله كئون - الرد القرآني على كتيب هل يمكن الاعتقاد بالقرآن ص : ٥ -

أحد منهم ونحن له مسلمون»^(٢٥) فالإيمان بجميع الرسل شرط صحة الإيمان في الإسلام .

(ب) عموم رسالة محمد ﷺ :

جميع الرسل الذين أوحى الله إليهم بشرعه وعهد إليهم بأبلاغه البشر تنطبق عليهم صفات البشر ، لكنهم أفضل البشر واكملهم ، لعصمتهم وتشريفهم بالرسالة ، وقد بعث كل منهم في أمته ، وأوفى كل منهم شريعة تناسب زمان ومكان أمته ، باستثناء نبينا محمد ﷺ ؛ إذ لم تكن شريعته موقوتة بزمان أو مكان ، إنها كانت للبشرية كلها أينما كانوا وفي أي زمان وجدوا .

وقد عني القرآن الكريم عناية كبيرة ببيان بعثة رسل الله السابقين وتوضيح حقيقة ما كلفوا به ، من ذلك قوله تعالى : ﴿لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾^(٢٥) وقوله : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾^(٢٦) .

(ج) تفضيل محمد وأمته :

قلنا إن شريعة كل رسول كانت موقوتة بزمان ومكان أمته

(٢٥) آل عمران : ٨٤ .

(٢٥) الحديد : ٢٥ .

(٢٦) النساء : ١٦٣ - ١٦٥ .

باستثناء محمد ﷺ ، فإنه قد ختمت بُنَوْنَه النبوات وبرسالته
الرسالات ، فلا نبى بعده ولا رسول ، بل إنه قد فَضِّلَ على سائر
الأنبياء والمرسلين ، قال ﷺ : «فضلت على الأنبياء بست :
أعطيت جوامع الكلم ، ونُصِرْتُ بالرُّعب ، وأُحِلَّت لى الغنائم ،
وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلتُ إلى الخلق كافة ،
وختم لى النبيون» (٢٧) .

وكذلك فَضِّلَتْ أُمَّتُه على سائر الأمم ، وقد أثبت هذا التفضيل
القرآن الكريم حيث قال : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢٨)
وقال : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٢٩) .

هذه الوسطية التى تُشير إليها تلك الآية نجدها ماثلة فى رسالة
الإسلام كلها ، بل هى جاع دعوة الإسلام ، وبها صار الإسلام
صراطاً مستقيماً ، ومن ثم كانت شريعته صالحة لكل زمان
ومكان ..

(د) وسطية الإسلام :

وسطية الإسلام تتمثل فى أنه لا إفراط ولا تفريط ، إنما هى
التوسط فى كل شىء ، سواء أكان ذلك فى جانب العقائد ، أو
جانب الأخلاق ، أو فى صلة الإنسان بربه ، أو بالحياة فى جميع
جوانبها ..

هذه الوسطية تتفق مع الفطرة البشرية عكس الافراط والتفريط

(٢٧) مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - رقم (٥٢٣) .

(٢٨) آل عمران : ١١٠ .

(٢٩) البقرة : ١٤٣ .

فإنها منافيان للفطر البشرية ، ولسنن الاجتماع التي تقضى بالتوسط في كل شيء ، ضماناً للنماء والبقاء والاستمرار دون انحلال أو اضمحلال .

ففي مجال العقيدة نجد عقيدة الإسلام وسطاً بين عقيدة من ينكرون وجود أى إله (ملحدون) ، وعقيدة من يؤمنون بتعدد الآلهة (مشركون) حيث دعا الإسلام ويدعو إلى التوحيد الخالص ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

وفي مجال الأخلاق وصلة الإنسان بالحياة في شتى مجالاتها نجد عقيدة الإسلام وسطاً بين دعوة من ينكرون كل الفضائل ، ودعوة من يفرطون ويبالغون في تصور الفضيلة فيجعلونها أمراً شاقاً صاداً لكثير من النفوس البشرية فالفضيلة في الإسلام تتوسط الحدين المتعارضين في كل شيء : لا جبن ولا تهور ، لا بخل ولا تبذير ، لا استكبار ولا استخذاء ، لا جزع ولا استكانة ، لا رهبانية ولا فسوق .

كل هذه المعاني نجدها واضحة في القرآن الكريم ، من ذلك قول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ^(٣٠) وقوله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا انْفَقَوْا لَا يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ وقوله : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ^(٣٢) وقوله : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ ^(٣٣)

(٣٠) الاسراء : ٢٩ .

(٣١) الفرقان : ٦٧ .

(٣٢) القصص : ٧٧ .

(٣٣) الجمعة : ١٠ .

وقوله : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (٣١) .

أما في مجال التشريع ووضع القوانين فإننا نجد تلك الوسطية متمثلة في عدم ترك المسلمين ليشرعوا لأنفسهم بأنفسهم في كل شيء ، وعدم تقييدهم بالتشريع السماوي في كل شيء ، فشرعة الإسلام قيدت وفوضت ، قيدت فيما لا تستقل العقول بادراكه ، ولا تختلف المصلحة فيه باختلاف الزمان والمكان كالعبادات والموارث ، ثم فوضت بأن وضعت الأطر الكبيرة والخطوط العريضة للمعاملات بين الناس بعضهم بعضاً ، أفراداً وجماعات ، أما وشعوباً ، فتركت فسحة أو مساحة بين هذا وذاك لتحرك العقل البشري في كل زمان تقديرًا للعقل ، وتلك الفسحة المتروكة أو المساحة هي دائرة الاجتهاد الذي يعدُّ ركنًا من أهم أركان الشريعة الإسلامية الخاتمة الخالدة .

وهذه الفسحة تؤكد لكل ذي بصيرة صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، وهداية القرآن للبشرية جمعاء ، لا سيما وأن القرآن لم يكن فيه أي متزاع إلى عرق أو طائفة أو جماعة ، إنما ينبثق عن أسس ومبادئ إنسانية مطلقة ، بحيث تأتي عامة فروعه متطابقة معها في دقة وإطراد (٣٥) وإن الإنسان - أي إنسان - إنما هو عبد الله وخليفته في الأرض ، ولا يمارى في هذه الحقيقة إلا من فقد عقله وبقى في عالم الهلوسة والمكابرة والعناد من أعداء الإسلام ، أو من الذين ينتمون إلى الإسلام بالتابعة والجنسية فقط .

(٣٤) الأعراف : ٣٢ .

(٣٥) د . محمد سعيد رمضان البوطي - من روائع القرآن ص ٢٦١ .

٥ - الإنسان في القرآن عبد الله وخليفته :

لقد قرر القرآن الكريم - في أكثر من موضع - عبودية الإنسان لله رب العالمين ، بل أكد القرآن الكريم أنه ما من مخلوق في العالم العلوى والسفلى إلا وهو خاضع مطيع لله سبحانه وتعالى شاكر لأنعمه التي لا تحصى ولا تعد ، يسبح بحمده ..

ويتميز الإنسان من بين تلك المخلوقات بنعمة العقل والتكليف فهو يشكر أنعم ربه ويلتزم توجيهاته ولا يدين لسواه ، إلا من فسدت فطرته التي خلق عليها فإنه يصير كنوداً عنيداً ، لا يُقرّ بدينٍ أو ديان ، ولا يعرف عظمة للرحمن ، وفي الوقت نفسه يعبد الحجر أو المدر ، والشجر أو البشر ، من حيث يدري ولا يدري ، إذ يجعل همّه ووجهته المادة ومن يعين على توفيرها من البشر ، فيصبح المال في قلبه ويستولى على عقله ، يأتمر بأمر المال وأصحاب المال ، وينتهى لنبيهم ، وذاك - فيما نعتقد - تقديسٌ أو إجلالٌ في غير محله ، وهكذا كان المشركون القدامى يعبدون ويقدمون المادّة ، ولا يعترفون للرحمن ، ولا يقلُّ عنهم شركاً من قالوا اتّخذ الرحمن ولداً ، وقد تولى القرآن الكريم الردّ على هؤلاء حيث قال :

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٣٦) .

والإنسان داخل في إطار (مَنْ) في الآية الكريمة ، فهو عبد الله دون رب ، ولكن ما المراد بهذه العبودية ؟ أيراد بها الإذلال والاهانة والقضاء على إنسانية الإنسان ومحو كرامة هذا العبد المملوك

أم ماذا؟ كلا ثم كلا .

ذلك معنى غير وارد إلا عند من يريدون إثارة الشبهات ، لأن الغاية من تلك العبودية هي المحافظة على كرامة الإنسان والسمو بإنسانيته من درك الهيمنة ومن الخضوع والاذلال لحجر أو بشر . (جنه أو دولار) وفضة أو ذهب .

المراد بتلك العبودية الارتفاع والسمو بإنسانية الإنسان عبر حَمْدِ خالق الكون وتطبيق شرعه لمصلحة الإنسان ذاته أولاً وآخراً ، لأن الله لا ينال من حمد العبد أو التزامه شيئاً ، ولكن يناله منه التقوى ، ومن ثم قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعمون ﴿٣٧﴾ أى ولا أريد منهم أن يطعموا خلقي ولا أن يطعموني ، فأنا الغنى الحميد ، قال البيضاوى : والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في معاشهم ، فكأنه سبحانه يقول : ما أريد أن استعين بهم كما يستعين السادة بعبيدهم ، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي . (٣٨) فهي عبودية للعبادة ، والعبادة نقاءً وتطهيراً ، وتربيةً وتهذيباً يحقق المنفعة المتبادلة بين العباد ، ويعينهم على عمارة الكون دون تباغض أو حسد ، ودون إفساد أو سفك للدماء .

ولو كان في تلك العبودية أى شىء من الإذلال وتحطيم كرامة الإنسان لما أضافها الله سبحانه وتعالى إلى أشرف خلقه وسيد رسله ، نبينا محمد ﷺ ، ولما نعته بصفة العبودية في أشرف المقامات ، على حين أنه نعت بها في ثلاث مقامات عليّة :

(٣٧) الذاريات : ٥٦ - ٥٧ .

(٣٨) محمد على الصابوني - صفوة التفسير - ج ٣ ص ٢٥٩ .

١ - مقام الإسراء حيث قال : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لئله من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (٣٩) .

٢ - الوحي حيث قال : ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ (٤٠) .

٣ - مقام الدعاء حيث قال : ﴿وأنه لما قام عبداً يدعو كادوا يكونون عليه لبداً ، قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحداً﴾ (٤١) .

فلو تاب الإنسان إلى عقله وابتعد عن مفسدات الفطرة النقية لأدرك حقيقة ، ولما استنكف أن يكون عبداً عابداً شاكرًا لمن أوجده ، ولكن : ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ (٤٢) ومن ثم كانت دعوة القرآن له كى يتأمل فى ذاته : ﴿فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾ (٤٣) ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ (٤٤) ﴿أو لم ير الإنسان أننا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ (٤٥) .

نعم الإنسان شديد الخصومة والجدال بالباطل ، يخاصم ربه وينكر قدرته ، ويكذب بالبعث والنشور ، فى حين أن الله سبحانه وتعالى قد خلقه من ماء مهين ، وخلق أباه من طين ، ثم كرمه وذريته أحسن تكرم ، حين أمر الملائكة بالسجود

(٤٣) الطارق : ٥ - ٧ .

(٤٤) النحل : ٧٨ .

(٤٥) يس : ٧٧ .

(٣٩) الاسراء : ١ .

(٤٠) النجم : ١٠ .

(٤١) الجن : ١٩ - ٢٠ .

(٤٢) العاديات : ٦ .

لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٤٦) .

ثم جعل الله الإنسان خليفة في الأرض بغية عمارة الكون واطهار حكمة الله وعظمته وعدالته في الأرض بما يلتزمه الإنسان من منهج العبودية لله تعالى لا يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، ولا ليتأله في الأرض فيعبد من دون الله ، أو يعبد ما سوى الله ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٧) .

وقول الملائكة ليس على سبيل الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبني آدم كما يتوهمه بعض المفسرين ، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول ، أى لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه ، وإنمّا هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك ، يقولون يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء (٤٨) .

أجابهم الله تعالى بقوله : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل لهم الرسل ، ويوجد منهم الصديقون والشهداء

(٤٦) الأعراف : ١١ .

(٤٧) البقرة : ٣٠ .

(٤٨) ابن كثير - مختصر ابن كثير ج ١ ص ٤٩ .

والصالحون والعباد والزهاد ، والأولياء والأبرار والمقربون
والعلماء والعاملون ، والخاشعون ، والمحبون له تبارك وتعالى ،
المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم .

فليس الناس جميعاً مفسدين في الأرض ، وليسوا كلهم
سواء ، وعليه نرى أنه من الواجب على كل داعية بالقرآن وإلى
القرآن أن يعرف طوائف الناس الذين يدعوهم إلى عبادة الله
والتزام شرعه وهديه ، نعم عليه أن يعرف طوائف الناس الذين
يدعوهم وأن يعرف حقائق نفوسهم ، وقد تولى القرآن الكريم
بيان ذلك كله ؛ إذ جعلهم من حيث الاستجابة للدعوة وعدم
الاستجابة لها ثلاثة أصناف أو ثلاث طوائف هي :

١ - طائفة المتقين الذين حافظوا على فطرهم وتجنبوا ما يفسدها ، أو
يعكر صفوها ، فبقيت صلتهم بالله قوية واستجابتهم لتوجيهاته
عظيمة ، وقد وصفهم الله بقوله : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٤٩) كما ذكر لهم
صفات أخريات في آيات أخريات ..

٢ - طائفة الكافرين الذين لم يحافظوا على فطرهم ، ولم يعملوا على
تجنبها عوامل التحطيم والدمار الخلقى والروحي المتمثلة في
الموروثات الفاسدة ، من أوهام وأباطيل وأراجيف ، ومن
نسلط المادة والعصبية الغاشمة ، فطغوا وبغوا وعاثوا في
الأرض فساداً ، وأخذوا يحاربون الله ورسوله والمتقين في السر
والعلن ، وقد ذكر الله أوصافاً عديدة لهذه الطائفة تذكراً
وذكرى لكل عبد منيب ، لئلاَّ العُدَّة ، ويتخذ الأُبهة اللازمة
لانتقاء شرِّ هؤلاء المجاهرين بالعصيان والمشهرين سيوف العداوة

(٤٩) البقرة : ٣ .

والبغضاء ، حيث قالوا : ﴿ قلوبنا في أكثّة ممّا تدعونا إليه وفي آذاننا قفر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾^(٥٠) ومن ثم كان توجيهه الله لنبيه الكريم مائلاً في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾^(٥١) .

٣ - طائفة المنافقين ، وهم الذين فسد باطنهم ، وتحولت وتبدلت فطرهم ، لكنهم يظهرون بين المسلمين كالمسلمين ، يقولون كلمة التوحيد ويصلون ، لكنهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين ، يدسون الدسائس ويدبرون المكائد في الخفاء ، فهم لا يجاهرون بالكفر والعناد ، لكنهم يسترون أعمالهم ويتسترون ، لهم وجهان في كل حالة وفي كل لحظة ، وهم موجودون في كل زمان ومكان ، وقد وصفهم الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ مَذْبُذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾^(٥٢) وقوله : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾^(٥٣) .

فليكن المؤمن كيساً فطناً لأمثال هؤلاء وغيرهم ، لأن المسلمين لم يبتلوا « في أى زمان ومكان بشر من هذه الطائفة ، تدبر المكائد ، وتروج الأكاذيب ، وتزعزع المؤمنين ، وتفسد روابط المحبين ، وتنفض سموم الشر والفتن ، وقد اهتم القرآن بالحديث عنهم والتحذير منهم ، حتى لا نكاد نجد سورة من سور القرآن المدنية تخلو من

(٥٢) النساء : ١٤٣ .

(٥٣) البقرة : ١٤ .

(٥٠) فصلت : ٥ .

(٥١) البقرة : ٦ - ٧ .

ذكرهم ولفت الأنظار إلى أوصافهم ، بل نزلت فيهم سورة كاملة سميت باسمهم» (٥٤) .

وما ذلك كله إلا من أجل مصلحة الإنسان في الأرض واسعاده في الحياة الباقية الخالدة ، إذن تلك الدسائس والمكائد لا بد أن تورث الإحن والبغضاء والشحناء بين الناس ، ومن ثم ينعدم الاستقرار (النفسي والمادى) ويعم الدمار (المادى والمعنوى) فرحةً بعبد الله - في أى زمان ومكان - كانت بعثة الرسل ، وكان توجيه القرآن الكريم وتحذيره من الكافرين والمنافقين ، فطوى للمؤمنين الذين لا يجحدون قيد أنملة عن شرع الله ، والذين يقدرون النعم ما ظهر منها وما بطن ، ويحمدون المنعم في السر والعلن ، كيلا يكونوا عبيداً للنعم ، وشتان بين عبيد النعم وعبيد المنعم ، ولهذا قال بعض العارفين : «عبيد النعم كثيرون وعبيد المنعم قليلون ، فالله تعالى ذكّر بنى إسرائيل بنعمه عليهم ، حتى يعرفوا نعمة المنعم ، قال ﴿اذكروا نعمتى﴾ ، وأما أمة محمد ﷺ فقد ذكرهم بالمنعم فقال ﴿فاذكرونى أذكركم﴾ ليتعرفوا من المنعم على النعمة وشتان بين الأمرين» (٥٥) .

فطوى للمؤمنين الذين يعرفون تلك النعم ويقدرونها حق قدرها بالشكر وإخلاص العبادة لله تبارك وتعالى ، ما كان واجباً منها وما لم يكن ؛ ليصبح كل عمل من أعمالهم في الحياة الدنيا عبادة لله تبارك وتعالى .

(٥٤) محمود شلتوت - تفسير القرآن الكريم - ص ٧٠ .

(٥٥) محمد على الصابونى - صفوة التفاسير - ج ١ ص ٥٤ .

الفصل الثالث

الدعوة إلى الله بناء للإنسان بناء متكاملًا

- ١ - صعوبة البناء ومشقة التحول .
- ٢ - الدعوة تجنب الأمة عوامل الضعف والوهن .
- ٣ - التطبيق العملي يعمق الفكرة ويوصل المنهج .

١ - صعوبة البناء ومشقة التحول :

الدعوة إلى الله ما هي إلا جهود متآزرة بوسائل مختلفة من أجل بناء الإنسان بناء متكاملًا ، بناء فكره ومشاعره ، وبناء روحه وعقله ، وقلبه ومعنوياته ، ليكون بذلك البناء عاملاً من عوامل نقل الأمة كلها من محيط إلى محيط ، فما أصعب هذا البناء ، وما أشق ذلك النقل ، طالما كانا مرتبطين بالإنسان وليس بالخائط أو الجدران ؛ إذ لا يوجد شيء في الكون كله أصعب مراساً من الإنسان ، فهو عصي الانقياد ، كثير اللدد واللجاج ، لا يلتقي قياده إلا لهواه ، ولا يستسلم إلا لشهواته ، فما أطوعه «لنداء قلبه إذا ناداه إلى خير أو شر ، وما أصره على ما يصيبه حينئذ من مشقة الجهد ونفقة المال ، بل ما أجمل ذلك وألذذه لديه» .

(١) البهي الخولي - تذكيرة الدعاء ص ٣٥ .

ومن ثم نرى أن مهمة الداعية إلى الله من أشق المهام وأصعبها ، خاصة عندما تتمرد الجهالة ويكثر أذعيا المعرفة ، إلى جانب التسلط والطغيان على المؤمنين من جانب أعداء الدين .

ورغم تلك المشقة والمعاناة تكون الدعوة لازمة وضرورية من ضرورات الحياة ، وتكون دعامة من دعائم التقدم والتطور رغم الصعاب التي قد تعترض المسيرة ؛ لأن الدعوة غرسٌ للعمل الصالح دون غرض أو هوى ، تعهدٌ له بالسقى والرعاية دون من أو رياء ، حتى ينمو ويتفرع وتصبح ثماره دائية القطوف ، بل تبقى دوحته مستمرة الايتاء والعطاء كلما توفر التجرد وابتعد الغرض والهوى ، ولا بد من الإشارة إلى أن التجرد في العمل هو غاية العبادات كلها ، بدءاً بتلاوة القرآن ، ومروراً باماطة الأذى عن الطريق وأمثالها ، وانتهاءً بأداء الفرائض والواجبات ، كل تلك الأعمال يجب أن تكون خالصة لله تبارك وتعالى ، دون من ، أو دون جرى وراء الشهرة وكسب اعجاب الناس ؛ لأن ذلك من شأنه أن يفسد العمل ويجعله قبيحاً ، ولا يكون عملاً صالحاً ؛ لأن العمل الصالح قرين الاخلاص والتجرد دوماً ، قال تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ (٢) وقال : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ (٣)

(٢) البينة : ٥ .

(٣) فصلت : ٣٣ .

حيث تشير الآية الأولى إلى أن دين الإسلام دين الملة المستقيمة إنما يتمثل في إخلاص الدين لله والميل عن الشرك وأهله ، على أن تنعكس آثار هذه العبادة الخالصة صلاةً وزكاةً وما يستلزمها ويتبعها ، وتشير الآية الثانية إلى ضرورة الربط بين الدعوة والعمل الصالح ؛ إذ لا معنى لقول بلا عمل ، ومن ثم قال ابن كثير في تفسير تلك الآية «أى وهو في نفسه مهتدٍ ، فنفعه لنفسه ولغيره ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، بل ياتم بالخير ويترك الشر ، وهذه عامة في كل من دعا إلى الخير»^(٤) وقال على كرم الله وجهه : «قصم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك» وقال الشاعر :

إبدأ بنفسك فانها عن غيها

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهنالك يقبل إن وعظت ويقتندي

بالرأى منك وينفع التعليم

وقال الآخر :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى

طبيبٌ يداوى الناس وهو عليل

وقال أبو العنابية :

وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى

وروح الخطايا من ثيابك تسطع

فالداعية العالم العامل المتجرد يكون أثره عظيما ونفعه

(٤) ابن كثير - مختصر تفسير ابن كثير - ج ٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

عميماً ، حيث يعمل عندئذ على توفير الاستقرار النفسى والروحى لأفراد الأمة ، فينصرف كل فرد من أفرادها إلى الجهد والاجتهاد فى عمارة الكون بحكم أنه خليفة الله فى الأرض ، وتلك العمارة الكونية هى التى تسمى اليوم بالتنمية الشاملة .

ومن ثم نرى أن الدعوة إلى الله لها دور كبير وأثر فعال فى التنمية بمفهومها الواسع منذ القدم ، فقط اختلفت الوسائل وتعددت الطرق والأساليب ، وتفاوتت من عصر إلى عصر ، ولكنها فى جميع العصور كانت تعنى بالإنسان باعتباره الطاقة ذات التأثير الفعال فى مجالات التنمية المختلفة ، وباعتباره الهدف والغاية من العمليات التنموية ، فهو أداة التغيير ، وهو الهدف من التغيير ، لكنه لن يكون فعالاً ولن يكون قادراً على التغيير دون توجيه وتبصير ، بحيث يدعو ذلك التوجيه إلى تغيير ما بنفسه ليتغير ما حوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ويدعوه ذلك التوجيه أيضاً إلى الابتعاد عن عوامل الأثرة والأنانية ، ونوازع الحسد والحقد وعوامل الجبن أو الخور والاستكانة ، ودوافع الشح والبخل والتقتير ، إلى جانب عشق السلطة والتسلط على عباد الله ، فهذه جميعاً من الأشياء التى يجب على الدعاة أن يعملوا على تجنب أنفسهم منها ثم تجنب بقية أفراد الأمة ، لتصبح البيئة بجوانبها المختلفة (نفسية ، اجتماعية ، روحية ، سياسية ، اقتصادية) نقية صالحة معينة على العمل الدؤوب والتنمية المضطردة .

٢ - الدعوة إلى تجنب الأمة عوامل الضعف :

بهذا تكون الدعوة إلى الله قد بنت الإنسان بناءً متكاملًا ، وتكون الدعوة إلى الله قد جُنِبَتِ الأمة عوامل الضعف الذي ينسرب فيقتُ في عَضُدِ الأمة من حيث تدرى ولا تدرى ، تلك العوامل التي أثبتتها الحوادث التاريخية وسنن الاجتماع وأكدت أنها هي التي تقود المجتمعات البشرية إلى الفشل وفقدان العزة وضعف الشوكة . ونعتقد أن تلك العوامل مهما تنوعت وتفاوتت فإنها تدور في فلك النقاط التالية :

- ١ - الهزيمة النفسية التي تجعل أفراد المجتمع يتأثرون بتأثيرات ضارة بما يثار بينهم من مثيرات وما يذاع من أراجيف .
- ٢ - التفكك وعدم التفاف الأفراد حول هدف وغاية مشتركة تشد الجميع وتجذبهم إليها جذباً .
- ٣ - السكوت على ما يرتكبه بعض أبناء الأمة من مخالفات مالية وغير مالية تقديراً لحسبهم أو نسبهم ، وانقواء لسلطتهم وتسليطهم .
- ٤ - السكوت على ما يرتكبه بعض كبراء الأمة وبعض القائمين على أمرها من فسوق وآثام ، فتنتشر حمى ذلك الوباء فتعم الأمة وتصبح البيئة ملوثة .
- ٥ - القسوة التي تملأ قلوب معظم أغنيائها ، وتحول بينهم وبين الشعور بحاجة فقرائها ، فلا يحسون بها ولا يدركون أنهم مستخلفون في تلك الأموال مؤتمنون عليها وعلى حسن التصرف فيها جمعاً وانفاقاً ، وأن فيها حقاً معلوماً للسائل والمحروم .

٦ - الاختلاف الذى ينشأ عن حب المال والتطلع إلى التكاثر والصراع حول السلطة والتسلط ، دنية كانت السلطة أم سياسية أم اقتصادية عند من يفصلون بين هذه وتلك ..

٧ - الاستسلام للجزع والهلع لما يصادفها من أحداث وصعاب وعدم التفكير فى المقاومة أو التوقي حتى تخر الأمة صريعة أمام الأحداث والخطوب أو تستسلم للأعداء المحاربين حرباً مادياً أو معنوياً .

ومما يحز فى النفس أن معظم هذه العوامل - إن لم يكن كلها قد أخذت تظهر فى مجتمعاتنا الإسلامية بنسب متفاوتة من مجتمع إلى مجتمع ومن عامل لآخر ، ففقدت مجتمعاتنا كثيراً من جوانب العزة والكرامة ، وبنسب متفاوتة أيضاً ، وسيأتى الدمار - للأمة - مائلاً فى أشكال وصور مختلفة عن دمار الأمم السابقة ، يوم أن يحق عليها القول ، إلا أن هذا لا يعنى استسلام الأمة وعدم توقيها ، ولكنه يعنى التنبيه والدعوة إلى مراجعة المواقف ومحاسبة النفس ، خاصة بالنسبة للدعاة ، ثم الحكام القائمين على أمر المسلمين ، والذين جعلوا شرع الله وراء ظهورهم .

على الدعاة أن يراجعوا خطواتهم ؛ لتطمئن قلوبهم ، ثم يطمئن المدعوون بأن جهود الدعاة تسير وفق المنهج الإسلامى السليم ، وحسب التوجيه الربانى الحكيم ، وتستثمر كل الامكانيات الفكرية فى فقه سنن الكون ودراسة عبر التاريخ وعظاته وقوارعه ، لتمد كل فرد من أفراد المجتمع المسلم بما يحتاج إليه فى مجال الفقه السياسى والاجتماعى

والاقتصادي ، وفي مجال الدعم النفسى والروحى ، فيتعلم الفرد المسلم من ارتفاع صوت الأذان المتكرر رفع الصوت فى قول الحق ، وعدم انزال الرأس لغير الواحد الأحد الفرد الصمد ، ويتعلم من توجيهات الدعاة وتطبيقاتهم العملية معنى الأثرة والايثار ، وحلاوة الصدق فى القول والعمل ، وعذوبة الجهد والاخلاص فى العمل ، وجمال الطهر والنقاء فى اللسان والبدن ، وفى الكلمة والضمير ، كما يدرك من توجيهات الدعاة وتطبيقاتهم العملية روعة الحق ، وعظمة الصمود والوقوف إلى جانب الحق صفاً واحداً دون تشييط بخلافات جزئية ، أو نظرات عرقية ، أو غير ذلك .

٣ - التطبيق العملى يعمق الفكرة وسؤصل المنهج :

بهذا وذاك وغيره يتعلم الفرد المسلم من أسلوب دعوة الدعاة ومن تطبيقاتهم العملية المعنى السامى والمغزى العميق لقول الرسول ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» . فيتعمق ذلك المعنى فى نفسه ويطبّع كل معاملاته مع أخيه المؤمن أينما كان وفى كل زمان ، يعين أخاه فى كل شىء ، حتى فى مجاهدة نفسه ، وذلك عن طريق التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، فهل فعل الدعاة كل ذلك ؟ إبراء للذمة وأداة للأمانة ، إنّا لنأمل ونرجو .

أما الحكماء الذين جعلوا شرع الله وراء ظهورهم فعليهم مراجعة مواقفهم من الإسلام ودعاة الإسلام إن كانوا مسلمين حقاً ، بحيث لا يكون وقوفهم إلى جانب الإسلام ودعاة الإسلام وقوفاً مظهرياً وشكلياً ، بقصد التباهى

والافتخار في اللقاءات والمؤتمرات الإسلامية ، أو بقصد الابتزاز السياسي الذي لا يورث الأمة سوى النكبات ، ومن ثمَّ يجعلون الإسلام شعاراتٍ ولافتاتٍ لا أثر لها في حياة الناس ، ولا تَمَسُّها إلا بمقدار ما يشير إلى موقع الدولة في خارطة العالم الإسلامي ويشعر بأن دينها الرسمي هو الإسلام ، أما تنزيل الإسلام وتطبيقه في حياة الناس فهو أمرٌ فيه كثير نظر ، وربما كان فيه شيء من الخطر - في نظر أولئك الحكام - ولكن على ماذا يا ترى الخطر؟ أعلى المنصب والجاه؟ أم على السلطة؟ وهي وإن طالَت ومهما طالَت فإلى أمدٍ محدود ، وكل فعل فيه مرصود ، لدى الحى الذى لا يموت ، والآيات الآفاقية والأنفسية تؤكد ذلك ، وما على أولئك الحكام إلا أن يراجعوها ، لتعينهم على تغيير ما بأنفسهم من جهل أو عداوة للإسلام ودعاة الإسلام ، فيكفوا عن تحنيط الإسلام في دوائر ضيقة ، وحصر الدعاة في زوايا محدّدة ، مراعاة لخطط بطانة السوء ، أو استجابةً للموازنات التى يتشدّق بها كثير من أولئك الحكام في أخريات الزمان مستغلين ما قد يوجد بين الدعاة من خلافات في مسائل جزئية ، ومن تباين في النظرة المذهبية ، ومن ضعف نفسى - أحياناً - يقود بعض الدعاة إلى العراك والتطاحن على مآرب لا تستحق بذل أدنى جهد ، فضلاً عن إقامة معركة .

فليتق الله عباد الله ، حكاماً ومحكومين ، دعاةً ومدعوين ، ولتزل الجفوة والفجوة بين الحكام والدعاة لتتآزر جهودهم من أجل الدعوة إلى الله في شتى المجالات ،

وليقرأوا التاريخ قراءة واعية مستبصرة ؛ ليتذكروا أن الأمة المسلمة قد مرت بمحن وشدائد في دورات التاريخ المختلفة ، اتخذت صوراً وأشكالاً ، لكنها لم تقص على حقيقة الأمة الإسلامية ، ولم تمحها من الوجود ، وما ذاك إلا لوجود القرآن بينهم ، يرفع معنوياتهم ، ويرأب صدعهم ، ويجمع شملهم ، ويذكرهم - دوماً - بضرورة الدعوة إلى الحق والتمسك بالحق ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(٥) .

وقد قال العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآية : «والمراد في الآية الأمة المحمدية لحديث «ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(٦) .

كما يذكر القرآن الكريم بضرورة الجهاد والصبر على الشدائد وبذل كل ما يمتلكون من أجل تحقيق النصر أو الاستشهاد والأجر ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَلَهُمْ بَأْسٌ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾^(٧) وكما قال ابن كثير فإن قول الله عز وجل : ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يشير إلى أمة محمد ﷺ ، وكلمة أمة تشمل الحكام والمحكومين ، والدعاة والمدعوين ، ومعنى ذلك أن الدعوة إلى الله واجبة على الأفراد والجماعات ،

(٥) الأعراف : ١٨١ .

(٦) ابن كثير : مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٠ .

(٧) النساء : ١٠٤ .

ونرى أنها على الحكام أوجب وألزم ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

والدعوة من جانب الأفراد يسيرة لكنها ذات آثار كبيرة إذا تواصلت وتواثقت ، بحيث يدعو كل مسلم أخاه المسلم إلى ما هو حق وعدل ، وينهاه عن كل ما يرى فيه من سوء ، ويذكره كلما نسي أو هفا ، فالمؤمن مرآة أخيه ، وبهذا سوف لا تسود المنكرات في المجتمعات الإسلامية ، وسيتوجه المجتمع كله نحو الخير والعدل - بإذن الله تبارك وتعالى - طالما شاع بين أفراده الإيمان الحق والتواصي بالحق دون تشدد ، ودون جنوح إلى التكفير للمجتمع بأسره ، أو الهجرة عنه طالما لم تتوفر فيه الصور والأشكال التي ارتسمت في مخيلة بعض المفرطين أو المفرطين .

وتلك هي السمات الأساسية للأمة المسلمة والتي كانت خير أمة أخرجت للناس ، وهي الدعائم التي يجب توفرها لدى كل مسلم ، خاصة دعامة الإيمان الحق ، لأنها ترتفع بالإنسان من العبودية لسوى الله تبارك وتعالى ، فـ (يقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد ، فلا يذل لأحد ، ولا يحنى رأسه لغير الواحد القهار...) (٨)

وقد يتساءل البعض عن الإيمان الحق ، وعن الضابط أو المعيار الذي يعرف به ذلك ، نقول : لا ضابط ولا معيار سوى العمل ، العمل الصالح ، ذلك لأن العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان الحق ، وثمار هذا الإيمان لا تذوى

(٨) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٦ ص ٣٩٦٧ .

ولا تذبل ولا تحجب طالما كان الإيمان قوياً والقرآن يرفده ويدعمه ، شأن هذه الثمار شأن عطر الورد والزهور الفواحة التي لا تستطيع أن تمسك أريجها ، وحينما يحدث أىُّ نشاز في أريجها يدعى لها المختصون ليشحّصوا الداء ويذكروا الدواء ...

وهكذا يجب أن يكون حال كل مؤمن ، حينما يحس بأن عطاءه في مجال الدعوة إلى الله غير موصول ، أو أن ثمار إيمانه - وهي العمل الصالح - ضاوية ضامرة ، يراجع خطواته ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ثم لا يلبث أن يجد أخاه المؤمن إلى جانبه ، يوصيه بالحق ويوصيه بالصبر على مجاهدة النفس حتى يتمكن من النهوض بالأمانة الكبرى ، وذلك هو الإيمان الحق .

فالإيمان الحق إذن ليس انكماشاً أو سلبية وانكفاء على الذات ، واكتفاء بما يدور في مكنونات الضمير ، صحيح : الإيمان هو ما وقر في القلب ، ولكن لا بد من أن تنعكس أصداء ذلك الإيمان المستقر في النفس على السلوك وعلى القول والعمل ، ليصبح عملاً صالحاً وقولاً معروفاً ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾^(٩) . والقول المعروف ، والأمر بالمعروف يشيران إلى الخطة والطريقة التي يجب أن يتبناها كلُّ داعٍ إلى الله حتى لا يهدم ما بنى ، أو ينفر من دعى ، بالفظاظة والقسوة ، أو الهجوم على النفوس البشرية بما يزعجها ..

(٩) البقرة : ٢٦٣ .

وأعتقد أن الذين يسلكون مسلك الفظاظة والتنفير - في زماننا هذا - معدودون أو قليلون ، وهم على الدعوة والدعاة محسوبون ، ولكن انضمت إليهم طائفة من أذعياء المعرفة ومن الطيبين الذين حسبوا أن الآية التي قررت وجود أمة تهدي بالحق وبه تعدل توجب على كل فرد من أفراد أمة محمد ﷺ أن يكون ضليعاً في أصول الفقه ، خبيراً بالمصالح المرسله عند المالكية والشافعية ، عليمًا بقواعد الاستحسان الذي اعتمده الحنفية ، قادراً على الاستنباط والترجيح ، متمكناً من تفسير القرآن الكريم ، وذاك مطلب عسير ، ودعوى لم يقل بها أحد من المفسرين ، وتكليف للناس بما لا يطيقون ، ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(١٠) بل هو إعراض عن سنة الله التي أوجدت التنوع في كل شيء لينم التعاون والتآزر الذي يحقق التكامل بغية عمارة الكون ، وإلا لفسد دولا ب الحياة .

ولنضرب مثلاً لذلك بمجتمع صغير أصر كل فرد من أفرادهِ أن يعمل في مجال الطب : الطب البلدى ، والعلمى ، والدجلى ، تاركين مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم ، فماذا يكون مصير هذا المجتمع ؟ ولا أقصد من هذا الدعوة إلى هجر الفقه والدراسات الدينية أو جعل الفقه والمعرفة الدينية وفقاً على مؤسسات رسمية وشبه رسمية أو على شهادات ودرجات علمية لها أسماء

(١٠) البقرة : ٢٨٦ .

أجنبية أو محلية ، ولا يمكن أن يقول هذا عاقل منصف ، لا سيما بعد قول الرسول ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» . ولكن قصدت أن أقول : الفقه نفحة ربانية ونعمة إلهية ، لا يلقاها إلا الذين صبروا ، ولا يؤتاها إلا ذو حظ عظيم ، وقصدت أن أقول : هناك حد أدنى من الفقه والمعرفة الدينية لابد لكل فرد من أفراد المسلمين من الإلمام به ليكمل إيمانه ، وهناك تفاصيل دقيقة ومسائل عميقة لا يلقاها إلا من صبروا على دراسة الفقه الديني وحفظوا بنعمة الله في التفقه ، فلترك الفتوى واستنباط الأحكام الفقهية لأمثال هؤلاء ، ولتدبر الأمة أو المجتمع بكل ما يعينهم على أداء تلك المهمة الجلييلة على وجه أكمل وبصورة أفضل ، حتى لا تحدث المضاعفات الجانبية ، بل تحدث الكوارث حينما تتعارض الأحكام أو تأتي بصورة مضللة أو مُبْلِلَة ، تماماً مثل ما يحدث للمريض حينما يأخذ وصفة طبيب وقد انتهى تاريخ استعمالها ، أو لها مضاعفات جانبية لم يك مُلِمّاً بها أو بالمضاد لها .

وليطمئن الذين لم يحفظوا بنعمة التعمق والتفقه في الدين بأنهم داخلون في مفهوم الآية التي خصّت الأمة المحمدية بدعوة الحق والعمل بالحق ، فهم داخلون في هذا المفهوم إذا تمسكوا بشريعة محمد ﷺ ، لأنهم يطبقون الحق ، ويقولون الحق على أنفسهم وعلى غيرهم ، وداخلون في هذا المفهوم لأنهم يدعون إلى الحق في حدود امكاناتهم وقدراتهم واستعداداتهم ، وكحديث أدنى يتواصلون بالحق ويتواصلون بالصبر .

ونعتقد أن التواصى بالحق والتواصى بالصبر يندرجان تحت قوله تعالى : ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ تنزيلاً لمن يحتاج إلى توجيه ديني وبصرة فقهية منزلة السائل المحتاج الذى تجب مراعاة مشاعره وكرامته فى حال اعطائه أو عدم اعطائه ، وكذلك المحتاج للمعرفة الدينية أو البصرة الفقهية ، أو النصيحة والتوجيه عن طريق التواصى بالحق والتواصى بالصبر .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن التواصى بالحق أمر ضرورى ضرورة تصل به إلى مرحلة الوجوب أحياناً ، وقد ذكروا لتلك الضرورة مبررات عديدة ، حيث قال أحدهم :

«النهوض بالحق عسير ، والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ، ومنطق المصلحة العامة ، وتصورات البيئة ، وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين ، والتواصى تذكير وتشجيع ، وأشعار بالقرى فى الهدف والغاية ، والأخوة فى العبء والأمانة ، فهو مضاعفة لمجموعة الاتجاهات الفردية ؛ إذ تتفاعل معاً فتتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ، ويحبه ولا يخذله ، وهذا الدين وهو الحق لا يقوم إلا فى حراسة جماعة متعاونة متواصية متكاملة متضامنة على هذا المثال ، والتواصى بالصبر كذلك ضرورة ، فالقيام على الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة ، لا بد من الصبر ، لا بد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير ، والصبر على الأذى

والمشقة ، والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر ، والصبر
على طول الطريق وبطء المراحل وانطماس المعالم وبعد
النهاية ..»^(١١)

فقدار الأمر إذن هو الإيمان الحق والتواصي بالحق ، عبر
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١١) سيد قطب - في ظلال القرآن - م ٦ ص ٣٩٦٧ - ٣٩٦٨ .

الفصل الرابع

منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى الله

- ١ - القرآن كله منهج دعوة ودستور حياة .
- ٢ - مقومات منهج الدعوة في القرآن الكريم :
 - أ) دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .
 - ب) تربية وإرساء لقواعد الحضارة الأخلاقية .
 - ج) تركيز على القدوة والتطبيق العملي .
 - د) دفع الغبن ورفع العوز بضمانات مثلى :
- ١ - أخذ الحكم من مصدره التشريعي الصحيح .
- ٢ - توخى العدل دون تحيز أو مجاملة .
- ٣ - الحرص على العدل في الأقوال وتجنب النجوى .
- ٤ - إشاعة مبدأ تكافل الأمة وربطه بالإيمان .
- ٥ - لا تجرم بأثر رجعي ولا تنزُر وازرةً وزر أخرى .
- هـ) دعوة إلى الأخوة الإيمانية والوحدة الإنسانية .

١ - القرآن الكريم كله منهج دعوة ودستور حياة :

القرآن الكريم يمثل منهجاً متكاملًا للدعوة إلى الله في كل زمان ومكان ، كما هو دستور حياة المسلمين في كل زمان ومكان ، ولن يستفيد الداعية من منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى الله إلا إذا تدبر معاني القرآن الكريم ، وامتزجت تلك المعاني بروحه ومشاعره ، ثم انعكست أصداء ذلك الامتزاج في سلوكه وجوانب حياته اليومية .

ولا شك في أن الرّعيل الأول من حملة مشاعل الدعوة الإسلامية قد فهموا القرآن الكريم ذلك الفهم ، ورافق فهمهم عقيدة وعمل ، عقيدة راسخة متأصلة فجرت لديهم كل الطاقات ، فأظهرت كل الكفاءات والقدرات ، وبذلك تمكنوا من عمارة الكون بغية إسعاد الكائن الحي في حدود نعم الله الميسرة وقتذاك ، توطئة للسعادة في الحياة الدائمة الباقية ، والتي وصفت في القرآن الكريم بأنها خير وأبقى : ﴿بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ .

لم يؤثر الرعيل الأول الحياة الدنيا ولم يهملها ، لكنّه أولاً من الرعاية والاهتمام بمقدار ما يعين على عمارة الكون بعيداً عن مستنقع الدمار الأخلاقي والتطاحن البشري ، وبعيداً عن القهر والتسلط على أى فرد من عباد الله - بغض النظر عن جنسه ولونه أو معتقده وفكره - طالما لم يعتد ولم يتسلط على غيره ، ومن ثمّ كانت لهم السيادة والريادة في شتى المجالات .

ولكى يعد المسلمون اليوم أنفسهم لتحمل تبعات وواجبات الدعوة الإسلامية على هذا النمط الرفيع من السلوك والنهج القويم في الدعوة ، عليهم أن يترسّموا منهج القرآن الكريم في الدعوة ، بل في ترسيخ العقيدة وتمكينها من النفوس ، وعندئذ يجدون أنفسهم في حاجة إلى أن يغيروا ما بأنفسهم أولاً - كما ذكرنا في مبحث سابق - ثم يسخروا كلّ الامكانيات المتاحة والطاقات المادية والمعنوية ، والتي ستعينهم على التأثير في النفوس البشرية ، فيتأثر الناس بسلوكهم ، ثم تأتى أقوالهم وأفكارهم معززة وموضحة مقاصد الأعمال ومبينة علل الأحكام .

وقد قلنا في مبحث سابق إن الدعوة إلى الله ليست وفقاً على فئة

أو طائفة بعينها ، ولكنها حقٌّ لازمٌ وواجبٌ على كل من أراد الله به خيراً وفقهه في الدين ، وأجرها ثابتٌ لكل من لم يوفقه الله على التفقه في الدين ، ولكنه كان يدعو في حدود الذات أو في دائرة التواصل بالحق والتواصي بالصبر .

ولا نود أن نعيد ما قررناه قبلاً ، ولكن أعدنا الفكرة فقط لننتقل منها إلى القول بأننا نرى أن الكثيرين من الذين تصدّوا للعمل في مجال الدعوة إلى الله كتابةً وخطابةً وتمثيلاً عبر التلفاز أو شاشة «السينما» في حاجة ماسة إلى أن نقول لهم - على سبيل التواصل بالحق والتواصي بالصبر على تقبل النصيح وتحمل النقد والتوجيه - نقول لهم : لكي تقوموا بما تمليه عليكم ضمائرکم ووجداناکم الإيمانية من تبليغ للدعوة الإسلامية على وجه أكمل وبصورة أفضل ، لا بد لكم من أن تسعوا جاهدين في طلب العلم متذكرين موقف موسى مع الخضر ؛ لتستكملوا حصيلتكم المعرفية في التفقه في الدين ، وما يستلزمه من وسائل تعبيرية ومعارف كونية ، وكحد أدنى نقترح ما يلي :

١ - دراسات إسلامية قوامها تأصيل العقيدة وفقه الشريعة إلى جانب تصحيح تلاوة القرآن الكريم وحفظ سور منه ومن الحديث النبوي .

٢ - تحصيل ثقافة لغوية وأدبية عامة تعين الداعية على سلامة التعبير وتبصّره بمقتضيات الأحوال وما يناسبها من أساليب ..

٣ - دراسة السيرة النبوية وتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم ، للاستفادة من دروس التاريخ وعبره ، إلى جانب دراسة السنة المطهرة .

٤ - المأمّ عامٌ بثقافات ومعارف العصر مما يجعل الداعية ذا بصير

ودراية عندما يعالج القضايا المختلفة ليبدى فيها الرأى من المنظور الإسلامى .

٥ - تدريب الداعية نفسه وتعويدها على التزام جانب التجرد والموضوعية فى كل ما يتناوله ، لأن الداعية بمثابة النور الذى يضىء الطريق ليهدى الحيارى سواء السبيل كيفما كانت انتماءاتهم العرقية ، أو الاقليمية ، أو العقدية ؛ إذ أن الداعى إلى الحق والفضيلة إنما يفتح على كل الناس ليرشد كل ضال سواء السبيل دون تهجّم على النفوس البشرية بما يصدّها وينفرها .

٦ - تدريب الداعية نفسها وتعويدها على الصمود مع الحق ولو أعرض عنه كل من يخالطهم ، وله فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، حيث صمد فى دعوته صمود الجبال الراسيات رغم ظلم ذوى القرى وطغيان الطغاة وتآزر قوى الشر والاحاد ، وقال : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أدع هذا الأمر ما تركته » وقال : « اللهم إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى » .

بهذا النهج سوف لا يكون بيننا من يشوّهون صورة الإسلام - دون أن يقصدوا - أولئك الذين يظنون أن الإسلام بعيدٌ عن معارف العصر ، ومتعارض مع حقائق الكون المتجدّد ، أو يفصلون بين الإسلام والدولة ، أو الاسلام والعلم ، أو الإسلام والحياة الاجتماعية للإنسان المسلم .
فعندما تصحّح التصورات ويستقيم الفهم يصبح كلُّ عمل يقوم به المسلم عبادة طالما كان يقصد به وجه الله ، « وتحيط الأذى عن الطريق صدقة » .

لابد للدعاة جميعاً من أن يترسموا منهج القرآن الكريم لتصفوا أرواحهم وتطيب نفوسهم ، وتتسع صدورهم ، فلا ينفرون الناس من الأخذ بأسباب التطور والتقدم بغية عمارة الكون بعيداً عن مستنقع الدمار الأخلاقي ، فليس من الإسلام بل ليس من الحكمة في شيء أن يدعو أحد إلى الأعراض عن الدنيا ، وينفر الناس من الغنى وجمع المال إذا توفرت الوسائل المشروعة ، واقتنع الغنى أو الساعى إلى الكسب وجمع المال بأنه مستخلفٌ عليها ، وأنه لا يلهيه التكاثر حتى يزور المقابر ، فلا يتكبر ولا يستعلى بماله ، ذاكراً قول الرسول ﷺ : «يقول ابن آدم مالى ، مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، ولبست فأبليت ، وتصدقت فأبقيت»^(١) وهذا الإبقاء الذى أشار إليه الرسول ﷺ نجده داخلاً ضمن قوله تعالى : ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾^(٢) . فالمال إذن يمكن أن يكون وسيلة معينة على تحقيق بعض من الباقيات الصالحات وتوفير جزء من الزاد الذى أشار إليه الشاعر بقوله :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقي
ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمشله
فترصد للأمر الذى كان أرصدا
﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾^(٣) .

(١) الترمذى فى جامعة - رقم ٢٣٤٢ .

(٢) الكهف : ٤٦ . (٣) البقرة : ١٩٧ .

٢ - مقومات منهج الدعوة إلى الله في القرآن :

أ) دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة :

من أبرز مقومات منهج الدعوة إلى الله في القرآن الكريم الحكمة والموعظة الحسنة ، يطالعنا ذلك أول ما يطالعنا في توجيه الله لنبيه الكريم بقوله : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) ويطالعنا ذلك أيضاً من خلال الأمر الموجّه إلى بنى إسرائيل كى يحسنوا إلى الوالدين والأقارب واليتامى الذى مات آباؤهم وهم صغار ، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب ، ثم يلزمهم بعد ذلك بأن يقولوا للناس - كافة الناس - حسناً ، أى الكلام الطيب الذى يؤلف القلوب ولا يجرح المشاعر ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) فقد قال : «قولوا للناس» ولم يقل : قولوا لإخوانكم ، أو قولوا لبنى جلدتكم ، لماذا يا ترى ؟ ليدلّ على أنّ الأمر بالإحسان عامٌ لجميع الناس ، المؤمن منهم والكافر ، البر والفاجر ، وفى هذا ما فيه من حض على مكارم الأخلاق بلىن الكلام وبسط الوجه والأدب الجميل ، ومن ثم كان قول بعض الشعراء :

بنى إنّ البرّ شىءٌ هين

وجهٌ طليقٌ ولسان لين

وكان قول الرسول ﷺ : «لم يعنى الله معيئاً ولكن يعنى معلماً وميسراً» .

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) البقرة : ٨٣ .

وما ذاك إلا لأن الحكمة أو الموعظة الحسنة من شأنها أن تجمع ولا تفرق ، وأن تقوى الأمل واليقين ، بل ترتفع بالمدعوين إلى مستوى الشعور بتبعة المسؤولية والتكليف ، ومن شأن الشعور بتبعة المسؤولية أن يغير طبائع الناس ، وواجب الدّاعية أن يعمل على إيقاظ مثل هذا الشعور بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا على إخماده بالتسجيل على المدعوين ضياع الدنيا والآخرة رغم ما يتحلون به من إيمان وخلق ، فهو عندئذ يبيت فيهم الشعور بالرحمة والأمل فيها ، ويعمّق في نفوسهم اليأس ، بل ربّما جعل قلوبهم في أكنة ممّا يدعوهم إليه ، وهذا مناف تماماً لنهج القرآن الكريم الذى أمر الرسول ﷺ أن يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومناف لمنهج القرآن الكريم الذى اختطّ لكلّ مسلم كيف يُذكر نفسه بالرجاء المستمرّ في عفو الله ورحمته ، وبالخوف المستمرّ من عقابه ، وذلك عندما يؤدى صلوات كل يوم وليلة ، فهو حينما يقول «الرّحمن الرحيم» يكون في دائرة الرجاء ، وبحسّ بحلاوة إيمانه وعدوبة عمله الصالح ، وعندما يقول : ﴿مالك يوم الدين﴾ ترتعد فرائضه ويستشعر بالخوف من مالك يوم الدين ، خوف رغبة وحرص على أن يتداركه الله بفضله ورحمته ، لا خوف بأس وقنوط إذ اليأس بغيب مذموم ، بل هو خروج عن دائرة الإيمان ﴿إنّه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾^(٦) ﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضّالّون﴾^(٧) فلتتعلّم أسلوب الدعوة إلى الله بالتى هى أحسن من القرآن الكريم عبارة ومضموناً ، ولتأخذ مثلاً لذلك أسلوب آيات الوصايا العشر في سورة الأنعام ، حيث رسمت إطاراً لمنهج

(٦) يوسف : ٨٧ .

(٧) الحجر : ٥٦ .

الدعوة الإسلامية ، كما جمعت بأسلوبها الآخذ بالقلوب جماع وأصول الفضائل وعمد الحياة الطيبة التي تنبع من الفطر السليمة والتي دعا إليها كل رسول من رسل الله السابقين ، ولا نودّ تفصيل أو بيان تلك الفضائل الآن ، ولكن لننظر في أسلوب آيات الوصايا العشر حيث يتصدرها طلبان متواليان ، وتوالى الطلب على هذا النحو له دلالة في البلاغة العربية ، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُكُمْ﴾ وكلمة تعالوا متضمنة الرغبة في الارتفاع بالمخاطبين إلى مستوى المشاركة فيما هو بصده ، إلى جانب دلالتها على الرغبة في التعاون مع المخاطب قبل أن تعيث به الأهواء فتذهب به مناحي الفساد والضلال .

هذا الأسلوب في جملة يشعر بمعاني العطف والمحبة ، والرحمة والمودة ، وهي معاني سامية لا يلقاها إلا الذين صبروا ولا يؤتاها من الدعاة إلا ذو حظ عظيم ، ومن ثم كان امتنان الله على نبيه الكريم أن هداه في الدعوة إلى الله باللين والرحمة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٨) ألفظاظه سوء الخلق وجفاء الطبع ، ومن ثم قال الشاعر :

أخشى فظاظه عمٌ أو جفاء أخٍ
وكنْتُ أخشى عليها من أذى الكلام
أما علَّظ القلب فهو عدمُ الرقة والرحمة ، وعدم التأثير لما يدعو إلى التأثير وتنفطر له القلوب الرقيقة ، ومن ثم قال الشاعر :

يُبكي علينا ولا نبكي على أحدٍ
لنحن أغلظ أكباداً من الإبل
وقال أحد المفسرين في تفسير تلك الآية :

(٨) آل عمران : ١٥٩ .

«أى فبسبب رحمة من الله أودعها في قلبك يا محمد كنت هاشماً
لِئِنَّ الجانِب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ، ولو
كنت جافى الطبع قاسى القلب ، تعاملهم بالغلظة والجفاء لتفرقوا
عنك ونفروا منك ، فتجاوز عمَّا نالك من أذاهم يا محمد ، وأطلب
لهم من الله المغفرة ، وشاورهم في جميع أمورك ليقتدى بك
النَّاسُ» ، قال الحسن «ماشاور قوم قطُّ إلاَّ هدوا لارشُد أمورهم ،
وكان عليه الصلاة والسلام كثير المشاورة لأصحابه»^(٩) وقد التزم
الرسول ﷺ بذلك المنهج الرباني فغدا كلُّ موقف من مواقفه ، بل
كل جانب من جوانب حياته معجزةً من أجلٍّ وأعظم المعجزات ،
نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

١ - اطمئنان قريش إليه في أموالها وذخائرها على الرغم مما بينها وبينه
من خلاف عقدي ، وما ذاك إلاَّ لما في صدق الرسول ﷺ
وأمانته من معجزات باهرات .

٢ - عفوه عن وحشى قاتل حمزة لما أسلم ، إلاَّ أن طبيعة البشرية قد
غلبته ، ومع ذلك لم يخرج عن المنهج القويم ، ولم يلحق الأذى
بمن التزم الصراط المستقيم ، فما كان منه إلاَّ أن قال لوحشى لا
تجعلنى أراك ، فكان يتوارى عن عينيه .. فكلم من الدعاة
اليوم يستطيعون كظم غيظهم ، وتحمل الأذى في سبيل
رضوان الله ؟

هذا وقد كان الجاهليون يعتبرون مثل هذا التصرف ضيماً
وإهانةً ويقولون :

ولا يقيم على ضيمٍ يراد به
إلاَّ الاذلان غيرُ الحيِّ والوتد

(٩) محمد على الصابوني - صفوة التفاسير ج ١ ص ٢٤٠ .

أما الرسول ﷺ فقد عفا وقال : لا تدعني أراك وكان تصرفه تصرف الهداية الإلهية لرسول العناية الإلهية .

٣ - عفو عن هند امرأة أبي سفيان التي بلغ من حقدها على محمد ﷺ ، ومن دعوته مبلغاً حملها على أن تفعل ما لم ولن يفعله أحد من البشر ، ولا الذئب أو النمر ، حيث شقت صدر حمزة عم النبي ﷺ وأخرجت كبده فأكلته ، ومع ذلك عفا عنها النبي ﷺ ، وقبل إسلامها ، وذلك عملاً بتوجيهات الله له في كيفية تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، ومسارة إلى مغفرة الله ورضوانه وقبوله ، قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين يتفكرون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (١٠) .

٤ - أهل مكة الذين عادوا النبي ﷺ ، وأصحابه ودعوته ، وجرعوهم الصعاب والعلقم ، ماذا فعل بهم رسول الله ﷺ حينما تمكن منهم ؟ هل عاداهم ؟ هل دبّر لهم المكائد ؟ هل أضمر لهم الحقد ؟ كلا ثم كلا ، ولكن قال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء ، فمن من حكّام هذا الزمان يسلك هذا المسلك تجاه معارضيه ولو كانوا على حق ؟ نعتقد أن تلك درجة سامية لم يصلها إلا القليلون جداً من حكام المسلمين بعد الخلافة الراشدة بل أن أكثرهم - كما يقال - لا يعرف شيئاً سوى القمع ، الكبت ، خلع الأظافر ، تنف اللّحي ، هتك عرض المعارض أمام ناظره ، وقديماً قيل :

(١٠) آل عمران : ١٣٣ - ١٣٤ .

واحتمال الأذى ورؤية جانيه

غذاء تضيؤ به الأجسام

وتلك تصرّفات ومواقف لا تقبل من حكامٍ يمثّون إلى
الإسلام بصلة .

وإذا كانت تلك المواقف مستغربةً مستهجنةً فعجبٌ منها
اعراض أولئك الحكام عن الإسلام وترديدهم القول بأنه قاسٍ
ولا يتناسب مع حضارة العصر !!

وتلك فرية ما فيها مزية ، خاصّة عندما تصدر من الذين لا
يحلوا لهم شيءٌ مثل الانتقام والتنكيل بالعقوبة . ومن ثمّ نقول
لهؤلاء لتعلموا أن الهدف من العقوبة في الإسلام هو الردع
والزجر وليس الانتقام والتنكيل بالناس .

وفي الردع والزجر ما فيهما من صون للدماء وحفظ لحياة
الناس . كل الناس الأبرياء المتقين أو الأشرار المجرمين . حينما
يرتدعوا وينزجروا عن ارتكاب الجرائم ..

ب) تربية وارساء لقواعد الحضارة الأخلاقية :

يُعنى القرآن الكريم بتربية من يدعوهم إلى الله تربية متكاملة
متجانسة عبر جميع الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم ؛ إذ أنّه
صنّف جميع تلك الموضوعات بصيغة الهدى والارشاد . وجعلها
جميعاً - رغم تباينها واختلافها - تتأسك وتشد بعضها بعضاً ، من
أجل تحقيق تلك الغاية والهدف التربوي ..

ومن ثمّ يمكن لكل قارئ للقرآن الكريم قراءة تدبر أن يدرك
ويستشعر استشعاراً عميقاً معنى العبودية لله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ . ولهذا كان في مقدمة التوجيهات التربوية

للقرآن الكريم توجيه العباد إلى العناية بالقلب والروح ، والعقل والجسد ، ليرتفع بهم إلى الأفق الأعلى ، أفق الإنسان الكامل كمالاً بشرياً ، حسب التصور القرآني لذلك الكمال البشري ، وبهذا أصبح كل فرد من أفراد المسلمين الأوائل طاقةً كونيةً فعالةً ، وقوةً عزيزةً لا تذلل ولا تضعف ولا تن ، بل تعمل دوماً من أجل إعلاء كلمة الله ، تجاهد في سبيل الله بالنفس والمال .

وقد سلك القرآن الكريم في هذه التربية المتكاملة أسلوب الانذار والتبشير المتمثل في الترغيب في نعم الآخرة الدائم الصافي ، ثم التهيب من الكفر والافساد في الأرض والطغيان على عباد الله : ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحُلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (١١) .

ومعلوم أن آية عملية تربية لا بد فيها من التدرج والتنوع الذي يدفع السأم والملل ، وأنتك لتجد هذا واضحاً في المنهج التربوي للقرآن الكريم ، حيث التنوع في موضوعاته ، والتنوع في وسائله في الدعوة إلى مقاصده ، وحيث التدرج بالناس في ما يدعوهم إليه ، بل كان نزول القرآن الكريم منجماً تمثيلاً مع مقتضيات الأحوال ، وتجارباً مع الرسول ﷺ ؛ لتعليمه - كل يوم تقريباً شيئاً جديداً ، ولارشاده وهديه وتثبيته ، فيزداد اطمئناناً ، ولتربية الصحابة رضوان الله عليهم واصلاح عاداتهم دون مباغته أو مفاجأة ، إلى جانب تمكينهم من تدبر القرآن الكريم في عمق ، وتنفيذ توجيهاته في يسر ...

ومن هنا نقول كان القرآن الكريم منهجاً ودستوراً لحياة الأمة

المسلمة كلها ، وسيبقى قائداً ودليلاً للإنسانية كلها ، إذا تمسكت به وعملت بتوجيهاته ؛ إذ سيوجهها إلى ما هو خير وأبقى ، ويبصرها بالحضارة الأخلاقية الحقة ، حضارة توافق الفطر البشرية وتتواءم مع النفوس الإنسانية ، ولهذا قال الرسول ﷺ : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» أى أَنَّهُ جاء ليَتَمِّمَ الصَّرح الإلهى الذى بناه الرُّسل والأنبياء السابقون له على مَرَّ العصور وحسب توجيه الله وهدايته لهم .

والذين يتساءلون عن الحضارة التى بناها وبينها القرآن الكريم عند التمسك بتوجيهاته نقول لهم : أمعنوا النظر جيداً فى قوله تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢) .

وفى قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ .

بتلك الهداية الموصوفة بأنها أقوم وأعدل تمكن القرآن الكريم من ارساء قواعد الحضارة الحقة ، حيث قَنَّنَ للذوق والأدب فى العلاقات الاجتماعية ، وفى المظهر والتحشُّم ، ثم فى الآداب العامة وغيرها ، إلى جانب الأصول التى وضعها العلم الخبير لتزكية النفوس وتطهيرها بالعبادات ، وتنمية الأموال وتطهيرها بالصدقات والزكوات ، وبالعَمَل المشروع فى كل مناحى الحياة .

والقرآن الكريم لم يشغل المسلمين فى كلِّ ذلك بموادٍ وتفرعات أو مذكرات تفسيرية ، ولم يكل أمر مراقبة تنفيذ العبد للعبادات أو عدم تنفيذه إلى رجال الشرطة والأمن أو غيرهم ، ولكئنه ترك الأمر

(١٢) المائدة : ١٥ - ١٦ .

للعبد نفسه ، بعد أن وضع له أسس تنمية الضمير المراقب ، وتقوية النفس اللوامة ، والتي تحضُّ صاحبها على أن يعبد الله كأنه يراه ، وهذا هو أعظم ثمرة من ثمرات الإيمان ، هو الإحسان الذي عرفه الرسول ﷺ بقوله : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

وقد كان هذا الاحسان بمثابة اللبنة الأولى في إرساء قواعد الحضارة الأخلاقية ، لأنه يستلزم مراقبة دائمة من المسلم في كل عمل وفي كل تصرف من تصرفاته ؛ إذ يشعر بأن عين الله ترقبه ، ويحسُّ بأن كل خاطرة وكل نية سيكشفها الله للناس ، وقد ينزل بشأنها آية ، فيحمل نزول الآية المسلم إلى المسارعة والاقلاع عن تلك الخاطرة .

ومن ثم كان كل مسلم في عهد الرسول ﷺ يحسُّ بهذه المراقبة الذاتية ، ويتلهَّف إلى توجيهات السماء حينما تأتي وفي أى أمر من الأمور ، لا سيما إذا كان الأمر متعلقاً به أو بمسلكه ؛ فتدفعه نفسه اللوامة إلى الاصغاء ثم الاقلاع الفورى ، إذا كانت الآية تدعو إلى الاقلاع عن عمل ما ، أو التنفيذ الفورى إذا كانت الآية تدعو إلى تنفيذ عمل ما .

ومن ذلك ما رواه الامام الترمذى عن معقل بن يسار رضى الله عنه أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ ، فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فهويها وهويته ، ثم خطبها مع الخطَّاب فقال له : أكرمتك بها فطلقتها ، والله لا ترجع إليك أبداً ، قال فعلم سبحانه وتعالى حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها فأنزل قوله : ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِيَنَّ عَنْكُمْ بَعْضُهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ﴾

بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر
ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (١٣) .
فما أن سمع معقل هذه الآية إلّا وقال : السمع والطاعة لرنا ،
فدعا طليق أخته ، فقال له أزوجك وأكرمك .

وهذا يعنى أن القرآن الكريم كان المرشد والموجه ، وكان هو
المنهج اليومي الذى يتلقاه المسلمون للعمل به فى جميع جوانب
حياتهم ، الدينية والدنيوية ، وقد كان منهجاً متكاملأ فريداً ، يتضح
تكامله من خلال القواعد العامة والأطر الكبيرة التى وضعها لتحرك
المسلمين فى شتى المجالات .

نأخذ مثلاً لذلك قصة معقل السابقة ، حيث لم تصرّح الآية
باسمه ، ولم تشر إليه من قريب أو بعيد ، لماذا يا ترى ؟ لأن الآية
أرادت أن تحل المعضلة الحالية ، وفى ذات الوقت تضع إطاراً عاماً
للمسلمين ، لذا جاء التعميم فى كثير من ألفاظ الآية وعباراتها ﴿إذا
طلقت النساء﴾ ﴿ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله﴾ ﴿فمن﴾ لا
تعنى شخصاً بعينه وهكذا ...

هذا الأسلوب القرآنى فى علاج المشكلات ورسم الخطط
المستقبلية لتفاديها وتداركها دون تشهير بأحد أو إحراج لأحد ، هو
المنهج التربوى السليم .

فمن يرجع إلى قصة حاطب بن أبى بلتعة فى جميع المصادر التى
عنيت بذكرها خاصة كتب التفسير يجدها صورة ناطقة ومعبرة عن
لحظة من لحظات الضعف البشرى ، صورة تهز فكر كل من يعرف
شيئاً عن ذلك الصحابى الجليل ، تهز هزاً عنيفاً ، وتجعله يرجع
البصر كرتين فيرتد إليه بصره كليلاً ، كما حدث لابن الخطاب الذى

(١٣) البقرة : ٢٣٢ .

ثار بادىء الأمر ، وقال للرسول ﷺ : دعنى أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ولكن سرعان ما ذرفت عينا عمر بالدموع عندما سمع كلمات الرسول المضيئة ، والتي تدل على عدم تعجل في الحكم ، وتشير إلى سعة الصدر وقوة العطف على لحظة الضعف البشرى الطارئة على نفس صاحبهم الذى أبلى بلاءً حسناً في سبيل الله ، إنَّ النفس لأماراة بالسوء .

نعم طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يكفوا عن حاطب قائلاً لهم : صدق ولا تقولوا إلا خيراً ، ترى لماذا فعل الرسول ﷺ ذلك ؟ فعل ذلك ليضع خطّة ومنهجاً للمسلمين في إعانة اخوانهم إقالة عثراتهم ، ولارشاد المسلمين إلى أن الصدق وقول الحق ولو على النفس أمارّة وعلامة من علامات التصور الإيماني الصحيح ، ومن ثمّ قال أحد المفسرين :

«يقف الإنسان أمام كلمات حاطب وهو في لحظة ضعفه ولكنّ تصويره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيماني الصحيح ، ذلك حيث يقول أردت أن تكون لى عند القوم يدّ يدفع بها الله عن أهلى ومالى ، فالله هو الذى يدفع ، وهذه اليد لا تدفع بنفسها ، إنّما يدفع الله بها ، ويؤكد هذا التصور في بقية حديثه وهو يقول : وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وولده وماله ، إنّها العشيرة أداة يدفع الله بها ، إنهم رجال مدرسة الرسول ﷺ ، إنه الإيمان الذى فعل فيهم ذلك جعل منهم هداة ودعاة ، هداة إلى الحق ودعاة إلى الواحد الأحد» (١٤)

إذن العفو والصفح وعدم التسرع في إصدار الأحكام صوتاً للكرامة التي خص الله الإنسان بها إلى جانب إيقاظ الضمير المراقب

(١٤) سيد قطب - في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٩٦٥ .

والنفس اللوامة ، كل تلك الأشياء ما هي إلا أسسٌ ودعائمٌ قويّة ثابتة لبناء الحضارة الأخلاقية التي تتفرّع عنها جميع الفضائل الأخلاقية الأخرى والتي أشرنا إليها في ثنايا المبحث السابق .
(ج) تركيز على القدوة والتطبيق العملي :

لم يكتفِ القرآن الكريم بوضع الأسس والقواعد ثم الأُطر الكبيرة وحسب ، أى لم يتركها حبيسة بين دفتي المصحف ، أو في أضياف الصحف التي حررها الدارسون لموضوعات القرآن المختلفة ، ولكنه وضع الأسس والقواعد والأُطر وجعلها ذوات فاعلية وإيجابية مستمرة عندما ربط بينها وبين الجوانب العملية ربطاً محكماً جاعلاً الرسول ﷺ قدوة المؤمنين فيها ، ﴿وَلَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١٥) كما أكد الرسول ﷺ وعمّق هذا الجانب العملي بأعماله وأقواله حيث قال : «الدِّينُ الْمَعَامِلَةُ» وحيث عرف بخلقه العظيم ومواقفه الكريمة المتعددة الجوانب .

وعندما نَتَّبَعُ خطوط النور المبين في القرآن الكريم نجد أضواء ساطعة في هذا الجانب ؛ إذ تؤكد كثير من الآيات أن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً لمجرد الإيمان العميق بالله وبالحقائق المنزلة ، ولكن يجب عليه أن يترجم ذلك الإيمان إلى واقع عملي يؤكد صحة إيمانه وعمقه وقوته - كما ذكرت من قبل - بحيث يصبح جهده ووقته وماله وجسده وفكره مسخّرة من أجل العقيدة التي آمن بها ، ومرتبطة بها أتم ارتباط ، وهذا يعنى أن تكون حياته كلّها عبادةً لله تبارك وتعالى ، لا استثناء في ذلك أى أنّ هذه العبادة تشمل : البيع والشراء ، والعلم والتعليم ، والسياسة والجهاد ، وذلك بالتزام شرع الله في كل تلك الأمور ، خوفاً من عقابه ورغبة في ثوابه .

(١٥) المبتحنة : ٦ .

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٧) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٨) .
فهذه الآيات وغيرها تقرن العمل بالإيمان ، بل تجعله ثمرة الإيمان ، ولهذا يمكن أن نقول : «إن كلمة مؤمن عندما تطلق في القرآن الكريم إنما تكون متضمنة هذا الجانب العملي ، ولا يمكن تصورهما خلواً منه ، إذ لا قيمة تذكر للاعتقاد أو التصديق القلبي غير المصحوب بالعمل ، فالقيمة الكبرى في العمل وفق الاعتقاد» .

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ (١٩) .
فلا فلاح ولا سعادة في الدنيا والآخرة - على حد سواء - إلا بالعمل ، يرشد إلى هذا ويؤكد قول الله عز وجل : ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ...﴾ ويشير إلى هذا المعنى قول الشاعر :

تريدين إدراك المعالي رخيصةً

ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل

فربط العقيدة بالعمل يكشف عن المشقة التي تصادف الدعوة والدعاة ، سواء أكان ذلك في الجانب النظري التصديقي ، أو الجانب العملي التطبيقي ، ومن ثمّ كان قول الله عز وجلّ لنبيه الكريم

(١٨) البقرة : ٢٧٧ .

(١٩) الأحقاف : ١٩ .

(١٦) الحجرات : ١٥ .

(١٧) الحج : ٧٧ .

﴿سنلقى عليك قولا ثقيلاً﴾^(٢٠) وقال ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾^(٢١) .

وقد وُفق الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة بصورة مثلى ، ومن ثمَّ كان قدوةً في أقواله وأعماله وتقريراته .
القدوة العملية لها الأثر في النفوس ، خاصة عندما يراد لتلك النفوس أن تقلع عن التشبُّث بعباداتٍ رسخت وتأصلت ويريد المشرِّع إزالتها أو إقلاع النَّاس عنها ؛ ذلك لأن التشريع وحده سوف لا يكون له قوة الدَّفْع والحفز مثلاً يكون له في حال تعاقبه مع القدوة العملية .

فالرسول ﷺ كان يقول لأتباعه «صلوا كما رأيتموني أصلي» ، لم يقل صلوا وهو غافل عن الصلاة باجتماع أو لقاء ، - حاشاه - ، ولم يقل اذهبوا وقاتلوا واني ها هنا قاعد أرقبكم من على البعد وأتوقع نصركم ونسفكم للعدو ، وحاشاه أن يكون من القاعدين - ، ولكئنه كان يتقدمهم في كثير من مواطن الجهاد والقتال ليضع الخطة والمنهج ، ويرسم القدوة العملية ، وهو لم يفعل ما فعله إلا بتوجيه من الله تبارك وتعالى ، ولهذا قالت - عنه أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها : «كان خلقه القرآن» .

ولاهتمام القرآن الكريم بالقدوة والتطبيق العملي سلك مسلكاً عملياً في الأجوبة على جميع الأسئلة التي وجهت إلى رسول الله ﷺ ، حيث ركز على وضع المبادئ التي توجَّه المسلمون نحو الأهداف والغايات العملية وتصرفهم عن العلل والأسباب التي كثيراً ما تقل درجة أهميتها ، وهذا يتفق مع الهدف والغاية من ارسال

(٢٠) الزمل : ٥ .

(٢١) الأنعام : ١١٦ .

الرسول ، وهى بيان الأحكام لأفعال المكلفين من عباد الله بعد تأسيس العقيدة وتأسيسها .

نضرب أمثلة لتلك الأسئلة والأجوبة بالآيات التالية :

﴿وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ (٢٢)

﴿يسألونك عن الأهلّة ، قل هى مواقيت للناس والحجّ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتّقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (٢٣)

﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس وإنّهم أكبر من نفعها﴾ (٢٤)

﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا يقربوهن حتّى يطهرن فإذا تطهّرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله﴾ (٢٥)

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربّى نسفاً ، فيذرّها قاعاً صافصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ (٢٦)

السؤال هو طلب العلم والمعرفة ، معرفة إحاطة وشمول ، أو معرفة المام وأخذ بطرق من حقائق المسئول عنه ، والواضح أن كلّ تلك الأجوبة لم تحقّق الإحاطة والشمول فى المعرفة بالنسبة للسائلين ، بل إن كلّ تلك الأجوبة لم تتعرّض لحقائق الأشياء المسئول عنها ، ولكنّها تلقت المخاطب بغير ما يترقّب ، وأجابت السائل بغير ما يتطلب ، لحكمة وفائدة ، وهذا ما يسميه البلاغيون

(٢٥) البقرة : ٢٢٢ .

(٢٦) طه : ١٠٥ - ١٠٧ .

(٢٢) البقرة : ١٨٦ .

(٢٣) البقرة : ١٨٩ .

(٢٤) البقرة : ٢١٩ .

(الأسلوب الحكيم) ؛ إذ ليس من الفائدة أن يقيدهم القرآن بحقائق بعينها من الجبال التي سألوا عنها ، ولكن الأنفع لهم أن تترك لعقولهم وأفكارهم حرية التفكير في حقائق الجبال وما فيها من منافع ومضار لهم ، يكتشفونها حيناً بعد حين ، حسب توفيق الله لهم ، كما أن الأنفع والذي ينبغي أن يستقر في نفوس السائلين بصورة لا تحتل إرجاء ولا تحتل تأخيراً ولا يطرأ عليها تبديل أو تغيير مهما ارتقى العقل والفكر - الذي ينبغي أن يستقر في النفوس هو أن لتلك الجبال رباً ، وأنه سينسفها يوماً - لا محالة - ويذرهما قاعاً صفصفاً ، وذلك تصويراً لعظمة الله جلّ جلاله ، وإشعاراً للسائلين بقدرة الله عزّ وجلّ ، وتأكيذاً للقارة التي بيّنتها سورة أخرى : ﴿القارة ما القارة وما أدراك ما القارة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأما هاهنا﴾ .

هذه الآيات وتلك تؤكد للإنسان أنّ القارة قد أثرت في الجبال القوية العظيمة رغم أنها قوية عظيمة ، فكيف يكون حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين ويقول لهم أنا المليك ، حيث الحديث القدسي «يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء يمينه ثم يقول : أنا المليك أين ملوك الأرض» (٢٧) ..

ذاك مثال واحد من الأجوبة التي تشير إلى الجوانب العملية النافعة لهم ، أما السؤال «عن النظريات البحتة التي لا يتعلق بها نفع في الدنيا ولا ثواب في الآخرة ، فهذا ليس من شأن المؤمنين العاملين ، فلا ينبغي أن يسأل عن الأرواح بعد مفارقتها للأجساد

(٢٧) محمود شلتوت - تفسير القرآن الكريم - ص ٥٤٧ - ٥٤٨ .

أين تكون ؟ وماذا تعمل ؟ ولا ينبغي أن يسأل عن كيفية الميزان ، ولا كيفية الوزن . ولا عن الوزن ، ولا عن أرض الجنة ، ولا عن سمائها ، وما إلى ذلك مما شغل به المسلمون أنفسهم ، وملاً كثير من علمائهم به كتبهم ، وصرفوا به الناس عن معرفة الخير وعمل الخير» (٢٨) .

فلو عني علماء المسلمين وحكامهم بالجوانب العملية وأصبحوا قدوةً لأتباعهم لتحققت العزة للمسلمين بأيسر طريق ، إذ سيدركون جميعاً وقتذاك أهمية أشياء كثيرة ذات تأثير كبير في حياتهم وتوجيه مسارها ، أقرب تلك الأشياء إدراك الجوانب العملية من ارتفاع المآذن وارتفاع صوت الأذان بالنداء قبل كل صلاة ، فيتعلم كل مؤمن رفع الصوت في قول الحق ، ويتعلم كيف يرفض الضيم ويرفض الظلم ولا يحنى رأسه لغير الواحد الأحد الفرد الصمد ، ولا يستسلم للضيم والظلم من أعداء الأمة والدين ، لكنه يدفع الظلم ويغير المنكر بيده إن استطاع ، وإلا فبلسانه وقلبه ، ولو على سبيل التردد والتذكير بقول الله عز وجل : ﴿ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾ (٢٩) ثم التردد لقول الشاعر الذي احتج على المستعمر الأجنبي قائلاً :

كسروا الأفلام هل تكسيرا	يمنع الأيدي أن تنقش صحرا
قطّعوا الأيدي هل تقطيعها	يمنع الأعين أن تنظر شزرا
اطفئوا الأعين هل اطفأوها	يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا
أحمدوا الأنفاس هذا جهدكم	وبه منجاتنا منكم فشكرا

(٢٨) الشيخ علي الطنطاوي - تعريف عام بالإسلام .

(٢٩) النساء : ١٠٤ .

يتعلم المؤمن من القرآن الكريم ومن التطبيقات العملية للدعاة أن الحياة تفقد قيمتها وروعها ولذتها حينما يطفى الطغاة ويتشرب استبداد المستبدين ويستحيل أداء الواجبات الربانية فضلاً عن المستحبات أو الفضائل العامة ، عند ذلك يستعذب المؤمن الموت في سبيل عقيدته ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا﴾ (٣٠) .
قف دون رأيك في الحياة مجاهداً إن الحياة عقيدة وجهاد

(د) دفع الغبن ورفع العوز بضمانات مثلى :

كما عنى القرآن الكريم بتوجيه التشريعات وتعليلها ، أو بيان بعض الحكمة من ورائها ، ليطمئن قلب المؤمن ويسارع إلى التنفيذ والامتثال لشرع الله ، كذلك عني بدفع الغبن ورفع العوز والحاجة التي قد تطرأ وتداهم المؤمن وتشل حركته الإيمانية ، أى تؤثر في أعماله - وعمل المؤمن كله عبادة لله - وقد كانت عناية القرآن بهذا الجانب عظيمة ، وجاءت متمثلة في التوجيه نحو العناية والاهتمام بعناصر العدل والعدالة ، والتي نراها تتمثل فيما يلي :

١ - أخذ الحكم من مصدره التشريعي الصحيح :

حيث دعا القرآن الكريم إلى أخذ الحكم من مصدره التشريعي الصحيح ، وأكد أن العدول عن ذلك بعد غبناً وظلماً فادحاً ، بل هو شرك وكفر ، إذ لا يجوز لأحد أن يُشرع في الدوائر التي لم يوكل أمرها للعقل البشرى والتي تولّاها الله سبحانه وتعالى وأنزل بشأنها تشريعاً ، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ (٣١)

(٣٠) آل عمران : ١٦٩ .

(٣١) المائدة : ٤٤ .

﴿فَلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾^(٣٢) ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾^(٣٣) .

معنى ذلك أن التحليل والتحريم اللذين يترتب عليهما الثواب والعقاب أمرٌ خاص بالله وحده ، فلا يحق لأحد أن يقول برأيه ، وإلا يكون هذا القائل قد خرج عن دائرة الإيمان بوحداية الله وتفرده في ربوبيته الخلق تربية خلقية وتشريعية ، وبهذا يكون قد تسبب في ظلم نفسه وظلم الآخرين معه .

أما ظلم نفسه فمن جهة أنه تسبب في إخراجها عن فطرتها التي فطرها الله عليها ، وهي الإيمان الفطرى الذى اعتبره الله سبحانه وتعالى بمثابة ميثاق وعهد بين الخالق والمخلوق ، أو بمثابة عقد جرى بين الله والإنسان في أن ينظر ويفكر متجرداً ، فيصل إلى الإيمان بالله رباً للخلق تربية خلقية وتشريعية ، ومن ثم لا يشرك به شيئاً ولا يشاركه فى شيء .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العهد أو العقد والميثاق بقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ، وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون﴾^(٣٤) .

إذن نستطيع أن نؤكد ما قررناه من أن يشارك الله فى التحليل والتحريم بالتشريع فى مسائل قد شرع الله فيها ولم يترك فيها مجالاً

(٣٤) الأعراف : ١٧٢ - ١٧٤ .

(٣٢) النساء : ٦٥ .

(٣٣) النور : ٥١ .

للعقل البشرى يكون هذا المشارك قد خرج عن دائرة الإيمان ، ويكون قد ظلم نفسه بنفسه بنقض عهدها وميثاقها ، ويجلب العقاب الأليم لها يوم الدين ﴿يَوْمَ يُقْرَأُ الْمُرَّةُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ (٣٥) ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٦) ذاك ظلمه لنفسه ، أما ظلمه للآخرين فيتمثل في إغوائهم وحرمانهم من الخير الدنيوى بسبب تحريمه عليهم الطيبات ، ومن الثواب الأخرى بسبب تحليله لهم المحرمات ، فهو فى الضالين يكون قد قطع طريق الخير والحق عن الخلق ، وربما كان ذنبه أكبر من ذنبهم إذا ارتكبوا تلك المحرمات ؛ لأنهم لا يعرفون الحكم وقد ضلُّوا ، أما هو فعارفٌ لحكم الله ، لكنَّه منكر له ومفضل حكم البشر على حكم الله فى المسائل التى لم يكل الله أمرها للبشر ..

٢ - توخى العدل دون تحيز أو تحامل :

ضماناً لتوفير العدل والعدالة كانت المهمة التى نيّطت برسول الله ﷺ ، وبخلفائه الراشدين ، بل بكل حاكم تولّى أمر المسلمين ، هى توخى العدل ، والحكم بين الناس بالحق الذى لا يجافى الواقع ولا يعرف التحيز أو التحامل ، ولو كان المحكوم له أو عليه عدواً أو مجرمًا ، قال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (٣٧) وقال : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِثِينَ خَصِيماً ، وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ، وَلَا تَجَادَلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ، يَسْتَخْفُونَ

(٣٥) عيسى : ٣٤ .

(٣٦) النحل : ١١٨ .

(٣٧) المائدة : ٨ .

من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ، لمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ؟ أم من يكون عليهم وكيلاً ؟ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً^(٣٨) .

﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ، ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾^(٣٩)

وقد بسط المفسرون الحديث حول هذه الآيات تفسيراً وبياناً لأسباب النزول ، والذي يهمنا الآن أن نكون على ذكر دوماً من هذه الآيات التي تحضُّ على ضرورة توخّي العدل دوماً ، بل إنها قد دعت الرسول ﷺ إلى ذلك ، وحذرت من الانخداع بأساليب ضعاف الإيمان ، والذين كانوا يدبرون ليصرفوا الجناية عن الجاني ، ويرموا بها بريئاً من اليهود ، ومن ثمّ نزلت هذه الآيات توجيهاً للرسول ﷺ حتى لا يحيد عن العدل الذي أمر به الله عزّ وجلّ في مواطن شتى من القرآن الكريم : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾^(٤٠)

وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال : «إنما أنا بشرٌ ، وأنه يأتيني الخصم ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي

(٣٨) النساء : ١٠٥ - ١١٠ .

(٣٩) النساء : ١١ - ١١٣ .

(٤٠) النحل : ٩٠ .

قطعة من النار ، فليأخذها أو ليركها .

وقد كان الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون المهديون يعتمدون على تشريع الله في الحكم ، ثم يجتهدون في فهم الحادثة من جميع جوانبها متحررين انطباق الحكم عليها ، وهم لا يفرقون بين الخصوم في مجلس القضاء ، فضلاً عن أن يتحيزوا أو يتحاملوا ، وحاشا رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك ، وهو الذي عصمه ربه وهداه ، وعرف بين قومه قبل البعثة بالصادق الأمين .

٢ - الحرص على العدل في الأقوال وتجنب النجوى :

العدل الذي دعا إليه القرآن الكريم لم يكن مقصوراً على الأعمال فقط ولكنه شمل الأقوال أيضاً ، وذلك تحوطاً وتحزناً من أن تبقى ثغرة يتكئ عليها الظالمون فيوقعوا ظلمهم على الأبرياء الضعفاء من عباد الله ، بغية إضعاف حياتهم ، وإفساد مجتمعهم ، والخط من كرامتهم بالكذب والغش ، أو بالمكائد والدسائس التي تبنى أساساً على الكذب والخداع .

لهذا كان القرآن الكريم حريصاً - كل الحرص - على زرع الصدق في قلوب المؤمنين وحيائه في نفوسهم ؛ ليحيوا في الدنيا حياة طيبة ، وينعموا في الآخرة مع الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً ، بل إن بعض آيات القرآن الكريم قد حصرت الصدق والتقوى في المؤمنين الذين استكملوا كل عناصر البر ، تلك العناصر التي حصرتها القرآن الكريم في :

(أ) الإيمان بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب المنزلّة ، والرسل ، والأنبياء والقدر خيره وشره .

(ب) الانفاق في سبيل الله من مال الله الذي استخلفهم عليه .

(ج) إقام الصلاة ، المكتوبة وغيرها ، ليتحقق الطهر والنقاء ،
والبعد عن الفحشاء والمنكر .

(د) إيتاء الزكاة ، إيماناً وامتنالاً لأوامر الله واسهاماً في رفع العوز
عن المجتمع .

(هـ) الوفاء بالعهود : ﴿وأوفوا بالعهد إِنََّّ العهد كان
مستولاً...﴾^(٤١) .

(و) الصبر في البأساء وحين البأس ﴿فأصبر على ما يقولون وسبح
بمحمد ربك﴾^(٤٢) .

﴿ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنَّ البرَّ
من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على
حبه ذوى القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل والسائلین وفى
الرِّقاب وأقام الصَّلاة وآتى الزَّكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا
والصَّابرين فى البأساء والضَّراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون﴾^(٤٣) .

هذه الآيات تؤكد تلك العناصر التى من بينها الوفاء بالعهد ،
ومعلوم أن الوفاء بالعهد صدقٌ وتقوى ، ولأهمية الصدق كان
التهديد والوعيد للمنافقين الكاذبين ، مع بيان صورتهم وحالتهم
حتى لا ينخدع الرسول ﷺ بخلافة لسانهم وقوة بيانهم ، قال
تعالى : ﴿ومن النَّاس من يعجبك قوله فى الحياة الدُّنيا ويشهد الله
على ما فى قلبه وهو ألدُّ الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد
فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق

(٤١) الاسراء : ٣٤ .

(٤٢) ق : ٣٩ .

(٤٣) البقرة : ١٧٧ .

الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد^(٤٤) .
وما ذاك إلا لأن الكذب خداع وخيانة ، والكذب تآمر
ومكيدة ، وكلها أمور ضارة بالجمتمع ، منافية لقواعد العدل
والعدالة ، ولهذا حذر القرآن الكريم من الكذب ورغب في
الصدق ، ارساء لقواعد العدل الذي أرسل الرُّسُل لإقامته في
الأرض .

ولم يطالب القرآن المسلمين بالصدق في القول المعلن فقط ، إنما
طالبهم بالصدق فيه وفي النجوى أيضاً ، حيث قال :

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتُم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان
ومعصية الرُّسول وتناجوا بالبرِّ والتقوى واتقوا الله الذي إليه
تحشرون ، إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس
بضارِّهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾^(٤٥) وحيث
قال : ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو
إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه
أجراً عظيماً ، ومن يشاقق الرُّسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع
غير سبيل المؤمنين نوَّله ما توَلَّى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾^(٤٦)
فالقرآن الكريم لم يمنع الناس من النجوى إلا لأن كثيراً من
الناس قد يضعف إيمانهم ومن ثم يصطنعون هذا الخُلُق وسيلةً أو
سبيلاً للافساد بين الأسر والجماعات والأفراد ، ولهذا كان المنع من
النجوى في القرآن الكريم ، وكان قول رسول الله ﷺ : «إذا كان
ثلاثة فلا يتناجى إثنان دون الثالث» ، وفي رواية أخرى : «إذا كنتم
ثلاثة رجال فلا يتناجى رجلان دون الثالث ، حتى يختلطوا بالناس

(٤٤) البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٤٥) المجادلة : ٩ - ١٠ .

(٤٦) النساء : ١١٤ .

إن ذلك يحزنه» .

وما ذلك إلا لسد مسارب الشيطان إلى قلب أخيه ، فيفسد عليه وعليهم ، حيث يقع الثالث فريسة للشكوك والهواجس والظنون ، والمؤمن الكامل الإيمان هو الذى يعمل على إبعاد أخيه عن تلك المزالق الخطرة ، مزالق الظنون والهواجس .

ولو عدنا إلى آخر آية استشهدنا بها فى هذا الصدد لوجدناها تنهى الخير عن كثير من التجوى مستعملة (لا) النافية للجنس ، وفى ذلك اشعار للمؤمنين بأن أكثر ما يتناجى به الناس فى شأن الغير إنما هو شرٌ ولا خير فيه قط ، ذلك لأنَّ الناس جبلوا على الحديث السرى فيما هو غير مرغوب ، أو لا يستطيعون أن يواجهوا به المتحدث عنه ، وذلك إثمٌ وضلالٌ ، إلا أنَّ الناس فى أخريات الزمان اعتبروا ذلك براعة وكياسة ، بل اعتبروا ذلك فطنة وحصافة لا سيما فى مجالات السياسة أو الخلاعة ، والمجون ، أو التجارة والاقتصاد .

لقد أصبح المناجاة بالاثم خير وسيلة لتدبير المكائد وإلحاق الأذى بالآخرين ، وذلك ظلم فادح احتاط له القرآن الكريم آنما احتياط حينما وضع الخطط العملية لتفاديه ، بغية تكوين مجتمع نظيف معافى من هذه الرذائل وأمثالها ، وذلك حينما أرسى قواعد الحضارة الأخلاقية الحقّة ، وحينما جعل رسول الله ﷺ القدوة والمثل والأنموذج الذى ينبغى أن يحتذى ويقتدى به ، أى يقتدى به كلُّ أفراد الأمة - دون استثناء - حكاماً كانوا أو محكومين ، ودعاة أو مدعويين ، وكان خلقه ﷺ القرآن .

٤ - إشاعة مبدأ التكافل وربطه بالإيمان :

لكيلا تكون الأموال أداة دمار وتخريب فى يد الأغنياء ووسيلة

حربٍ وتضييق على الفقراء ، غنى القرآن الكريم ببيان وظيفة المال في الحياة الدنيا ، كما عنى بالفرد المسلم ليعمر قلبه بالإيمان حتى لا تكون فيه أية مساحة لعبادة الأموال وتقديسها ، أو التكاثر والتفاخر ، وبذلك تصبح الأموال جارية متوفرة في أيدي المسلمين ، وليست في قلوبهم ، يجمعونها من حلال ، وينفقونها في حلال دون من رياء ؛ إذ ينفق أحدهم بيمينه ، حتى لا تعلم شماله ماذا انفقت يمينه ، ودون حسرة أو ندم على الانفاق في وجوه البر والخير ، طالما كانت الأموال وكل ما في الكون ملكاً لله ، وطالما كان الإنسان عبداً لله مستخلفاً في أموال الله ؛ لينفع بها نفسه وذويه وبقية عباد الله ..

ومن ثم جاءت أحكام القرآن الكريم شاملة كل ما من شأنه أن يساعد في استقرار الحياة ، وتهذئة النفوس ، واطمئنان القلوب ، أهم تلك الأحكام هي التي وجهت المؤمن وطلبت منه أن ينصرف بجد واجتهاد إلى العمل وفي تجرد وإخلاص ، مؤمناً بأن العمل شرف وجهاد ، بل كل عمل المؤمن عبادة متى كان خالصاً لوجهه الكريم ، ومن ثم أوجب على كل مسلم ألا يترك العمل إلا عند الضرورة أو العجز ، فلا يأكل إلا من عمل يده ، إلا في حالة العجز أو الضرورة ، ولهذا قال الرسول ﷺ «لئن يحطب أحدكم فيأكل من عمل يده خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو لم يعطوه» وقال : «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم» وقال «اليد العليا خير من اليد السفلى» .

وعلى الرغم من عناية الإسلام ببيان ذل السؤال وتحقيره في نظر المسلمين فإنه كان في الجانب الآخر يحث على الانفاق والعطاء عبر الصدقات والزكوات ، ويدعو إلى تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن

بعض ، وتأزرها عبر فعل الخيرات واقامة المشروعات النافعة ، ليختنى عن مجتمع المسلمين - فى أى زمان ومكان - شبح العوز والحاجة المدمرة ، أو شبح العطالة والتعطل المهلك ، كما هو الحال فى بعض مجتمعات الغرب اليوم .

وقد تعمق مبدأ التكافل هذا منذ قيام المجتمع الإسلامى الأول فى عهد رسول الله ﷺ ، وذلك حينما دعا الرسول ﷺ إلى مبدأ المؤاخاة بعيد هجرته ، ليحل الأزمة المعاشية التى داهمت المهاجرين ، ولينظم علاقاتهم الاجتماعية باخوانهم الأنصار فقال : «تآخوا فى الله أخوين أخوين» ، فهل أجدى ذلك نفعاً ؟

نعم لقد حقق ذلك المبدأ ما يحار منه كل عقل اقتصادى ملحد ، ويظمن إلى كل عقل مؤمن بأن الرسول لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى .

كان أن تأخى أبو بكر الصديق مع خارجة بن زهير ، وعمر بن الخطاب مع عتبة بن مالك ، وأبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ ، وعبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع ، والزبير بن العوام مع مسلمة ابن سلامة ، وعثمان بن عفان مع أوس بن ثابت ، وطلحة بن عبيد الله مع طلحة بن مالك ، وسعيد بن زيد مع أبى بن كعب ، ومصعب بن عمير مع أبى أيوب خالد بن زيد ، وأبو حذيفة ابن عتبة مع عباد بن بشر ، وعمار بن ياسر مع حذيفة ابن اليمان ، وأبوذر الغفارى مع المنذر بن عمرو ، وحاطب بن أبى بلتعة مع عويم بن ساعدة ، وسلمان الفارسى مع أبى الدرداء ، وبلال مع أبى رويحة (٤٧) .

-
- (٤٧) انظر : ● المعوى - وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى - ١٩٠/١ - ١٩١
● البلاذرى - أنساب الأسراف - ٢٧٠/١ - ٢٧١ .
● سيرة ابن هشام ص ١٣٨ - ١٣٩ ابن كثير - البداية والنهاية - ٢٢٦/٣ - ٢٢٩

ولم يقف الأمر عند الجانب المظهرى الشكلى المتمثل فى الكثرة العددية للمتآخين والمتراطين برابطة أقوى من رابطة الدم والقبيلة ، إنما تعداه إلى تبديل المفاهيم وتغيير التصورات فى أدق الأشياء وأهمها .

من ذلك مثلاً أن الميراث كان محصوراً فى ذوى القرابة والرحم ، ثم صار ميراث الأنصارى يؤول بعد وفاته إلى أخيه المهاجر بدلاً من ذوى رَحِمَتِهِ من الأخوة والأبناء والنساء ، واستمرَّ الأمر كذلك حتى موقعة بدر التى انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً فأنزل الله تبارك وتعالى قوله : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٤٨) .

فعاد التوارث سيرته الأولى بعد أن زالت دواعى الارث بالحلف والاخاء ، إذ نسخ ذلك الحكم وأزيل بهذه الآية ، نَسَخَهُ اللهُ سبحانه وتعالى الذى أحاط بكل شىء علماً ، والذى تقصر العقول البشرية عن ادراك كثير من جوانب حكمه التشريعية ، «وكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» (٤٩) .

ألم يكن هذا إرساء لقواعد العدالة الاجتماعية ؟ بلى ، إنه تجربة رائدة فى مجال العدل الاجتماعى ، وضع أسسها وقواعدها الرسول ﷺ ، فأكد مرونة الإسلام وقدرته على علاج أقوى وأعصى المشاكل ..

وقد يقال أن هذا العمل كانت له آثار جانبية سيئة ، ولكن التاريخ يرد على هؤلاء المغرضين بأن الواقع المعاش وقتذاك بنى هذا الزعم ، ذلك لأن المهاجرين قد قابلوا إيثار اخوانهم الأنصار

(٤٨) الأنفال : ٧٥ .

(٤٩) محمد على الصابونى - صفوة التفاسير - ١٧/١ .

وكرمهم وسماحتهم بتقدير كامل وسماحة مماثلة ، ورفضوا منذ البدء أن يكونوا اتكاليين أو أن يصبحوا عالة على أولئك الذين آووههم وقاسموهم ونصروهم .

نذكر هنا ما رواه البخارى من أن المهاجرين لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وسعد ابن الربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك فسمّها لى أطلقها ، فإذا انقضت عدتها تزوجها ، فقال عبدالرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب إلّا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع .

فالمسلم الغنى لا يعرف الشح والأناية ، لأن المال مال الله وهو مستخلف فيه ، ولأنه مؤمن بأن فى الأموال حقاً معلوماً للسائل والمحرور ..

ومن ثم كان الربط المحكم بين الصلاة والزكاة من جانب ، وبين الزكاة والإيمان من جانب آخر ، قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (٥٠) .

وقال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذَى الْقُرَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذَى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجَنْبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ، الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ، وَالَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ

الآخر ، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ، وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا ممّا رزقهم الله وكان الله بهم عليماً ﴿٥١﴾ .

لقد ربطت هذه الآيات بين عبادة الله وبين الإحسان المستمر بالطوائف التي ذكرت في الآية خاصة من ذكروا أولاً وهم الوالدان ، وقلنا بالطوائف ولم نقل على الطوائف تمثيلاً مع أسلوب القرآن الكريم الذي أثر في هذا المقام استعمال «الباء» ، ولم يكن استعماله اعتباراً أو حلية لفظية ، ولكن ليؤكد ضرورة أن يتصل البر والاحسان بمن ذكروا اتصالاً قوياً دون حاجز أو فاصل ، كان ذلك الحاجز مادياً أو معنوياً ...

ونعني بالحاجز المادى القاء ذلك الاحسان من عل ونشره على الأرض هنا وهناك كما يُلقي العشب أو العلف في حظيرة الدواب ، ونقصد بالحاجز المعنوى الرياء والمن الذى يجعل المحسن إليه يتباعد ويكره مثل هذا الإحسان .

فالحاجز المادى أو المعنوى كلاهما ضار مؤذ بالمحسن إليه ولا يتناسب مع القرب أو الالتصاق الذى فهم من الآية باستعمال الباء . ويلاحظ أنّ الآية قد ركّزت على قطاعات المجتمع المختلفة بدءاً بعباد الأسرة وهو الأب ، والأسرة هي الخلّة الأولى للمجتمع . وقد جعل القرآن الكريم الانفاق في كل أوجه الخير وسيلة لتزكية النفوس وتنمية الأموال : ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصل﴾ ، كما بين أن سعى الناس مختلف في حقيقته ، مختلف في بواعثه ودوافعه ، ومن ثمّ فهو مختلف في نتائجه وثمرته ، أو ما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، وما ذاك إلا لأن القرآن الكريم يريد

(٥١) النساء : ٣٦ - ٣٩ .

للمسلمين أجمعين حياة طيبة كريمة نظيفة شريفة ، ولهذا شرعت الزكوات وفعل الخيرات لما لها من آثار طيبة في نفوس المعطين والمستفيدين ، وفي المجتمع بأسره ، وذلك بإزالة شبح البلاء والمصيبة الكبرى وهي الفقر ، ذلك الفقر الذي تعوذ منه الرسول ﷺ ، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان الرسول ﷺ يقول : «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار ، ومن عذاب النار ، وأعوذ بك من فتنة القبر ، ومن عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة الغنى ، وأعوذ بك من فتنة الفقر» .

تحقيقاً لذلك المبدأ ، مبدأ الحياة الكريمة الفاضلة الشريفة في جميع المجتمعات الإسلامية - في أى زمان ومكان - كانت اجتهادات قدامى فقهاء المسلمين والمحدثين منهم حول ما تساهم به الزكاة في علاج الفقر ودفع العوز والحاجة ، فذهب الامام أبوحنيفة إلى عدم قصر الاعطاء من الزكاة على المحتاج فقط ، إنما يعطى ويعطى كل فرد من أفراد عائلته دفعاً للعوز والحاجة ومنعاً للفقر القتال ، وذهب الامام مالك إلى اعطاء المحتاج فقط ، ولكن يُعطى ما يكفيه لمدة عام ، وهكذا ذهب جمهور الحنابلة وبعض الشافعية ، أما الامام الشافعي فقد ذهب إلى القول بإعطاء الفقير والمسكين كفاية عمره .

وقد نحا الدكتور القرضاوى وغيره من الفقهاء المحدثين هذا المنحى في البحث عن أهمية الزكاة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية ، والبحث عن أنجح السبل لإزالة الفقر عن مجتمع المسلمين ومحوه عنهم كما يحو لسان الصبح مداد الظلام ، فظهر من يدعو إلى اعطاء الفقير المواد الغذائية أو الاستهلاكية لمدة عام ، ومن يدعو إلى إعطاء الفقير التأهيل الفنى والأدوات الانتاجية التي تعينه على كسب

العيش وضمان الحياة الكريمة له ولأسرته وهذا ما تميل إليه .
 بهذا أو ذلك سيزول شبح الفقر عن مجتمع المسلمين - لا
 محالة - لا سيما وأن الفقر أمر طارئ عارض شأنه شأن المرض الذى
 يزول - بإذن الله - بالعلاج والدواء ، ويستوطن ويفتك بالاهمال
 والتغافل ، هذا وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه أخبر عن زمن
 يستغنى فيه الناس عن الصدقة ، وذلك فيما روى عن أبى موسى
 الأشعرى عن النبي ﷺ أنه قال :
 «ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب
 ثم لا يجد أحداً يأخذها منه» .

نعم سيتحقق هذا إذا أخذ الناس بصرف الزكاة على الفقراء بناءً
 على رأى القائل الفقير ما يكفيه لمدة عام أو اعطائه التأهيل
 والأدوات الانتاجية ؛ إذ سيتمكن من استثمار ذلك ، وقد يوفق
 فيصبح غنياً مخرجاً للزكاة ، ومن ثم كان تفضيلنا وترجيحنا لهذا
 الرأى ، لا سيما وأن القول باعطائه قوت ليلة أو ليل يظهر فيه عدم
 اتاحة الفرصة أمام الفقير ليستثمر شيئاً ليصبح منتجاً معطياً ، لكنه
 يظل مستهلكاً لاهناً وراء تغطية الديون أو تغطية المصروفات
 الضرورية ، ومن ثم يبقى متزيقاً أخبار مخرجى الزكاة ، أو يبقى ماداً
 يده فى الطرق والمساجد .

وما ذاك إلا لغية بيت مال المسلمين الذى سيعنى بتخصيص
 ديوان للزكاة تكون مهمته جمع الزكوات وإعداد الدراسات
 العاجلة الوافية عن فقراء البلدة المسلمة ثم إعطاؤهم ما يكفيهم أو
 يزيل عنهم شبح الفقر لكيلا يترددوا على بيت المال أو ديوان الزكاة
 كل شهر وكل عام ، لأن مثل هذا التردد يتنافى مع روح الإسلام
 الذى يبغض الفقر ويسعى للقضاء عليه من ساحة المجتمع المسلم

بشتى السبل وفى مقدمتها ، وأهمها الزكاة .

نجد ذلك واضحاً من خلال أقوال الرسول ﷺ : «والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا ، قالوا كلنا رحيم يا رسول الله ، قال : إنه ليس برحمة أحدكم ، يعنى نفسه وأهل خاصته ولكن رحمة العامة»^(٥٢) «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٥٣) . «أما أهل عرصة ظلّ فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله»^(٥٤) «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له» «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت ولبست فأبليت وتصدقت فأبقيت وما دون ذلك لغيرك» .

هذا نور على نور ، بهما ينبلج الصبح وتزول الظلمة عن المجتمع المسلم ، ليسعى فى الأرض حبثاً بغية عمارة الكون ، عند ذاك لن يسرق أحد من أفرادِهِ بسبب الجوع أو الحاجة ، ولن تضطرّ امرأة لأن تبيع عرضها من أجل المال ، ولن يحرم أحدٌ من حقوقه ، ذلك الحرمان الذى هو سبب الحقد وباعث الغضب ومشعل الفوضى والاضطراب داخل المجتمع .

ولا يظن أحد أن ذلك سيتحقق للمجتمع المسلم بسبب توفر المال وحده ، كلا ثم كلا ؛ إذ قد يكون المال سبباً فى انحراف المجتمع وضياعه إذا لم تشع بين أفراد المجتمع مجموعة من القيم والأخلاق الإسلامية .

وقد قصّ علينا القرآن الكريم قصّة سبأ وقصّة قارون وغيرها

(٥٢) رواه الحاكم .

(٥٣) مسلم - كتاب البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين رقم ٢٥٨٦ .

(٥٤) رواه ابن أبى شيبة فى مسنده .

بغية تأكيد هذه الحقيقة ، حقيقة أن الغنى وحده لا يحل مشكلات المجتمع ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سَدْرٍ قَلِيلٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴾ (٥٥) .

ذلك أن قوم سبأ قد كفروا بأنعم الله فخرب الله ملكهم وشتت شملهم فكانوا عبرة لمن يعتبر ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ . قَالَ إِنَّهَا أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعاً وَلَا يَسْتَلِ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَلْذُو حِظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٥٦) أى جعل الله الأرض تغور به ويكنوزه جزاء تكبره ، وبقيت قصته عظة وعبرة للمعتبرين .

(٥٥) سورة سبأ : ١٥ - ١٧ .

(٥٦) سورة القصص : ٧٦ - ٨١ .

٥ - لا تجرم بأثر رجعي ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى :

من الضمانات المثلى التى وضعها القرآن الكريم لدفع الغبن ورفع الظلم عن كاهل المجتمع المسلم ذلك المبدأ الذى أقرته الشريعة الإسلامية وهو مبدأ أن لا تجرم بأثر رجعي ولا تزر وازرة وزر أخرى ، معنى ذلك أن القرآن الكريم عندما نزل على نبينا الكريم لم يأمره بمحاسبة الناس على ما فعلوه قبل بزوغ فجر الدعوة الإسلامية ، كما لم يخاطب الذين ماتوا قبل إشراق نور القرآن الكريم على دجى الكون ، ومن ثم أكد الرسول ﷺ أن أهل الفترة ناجون ، أما الذين حضروا الإسلام ولّبوا دعوته واستجابوا لندائه فلا يحاسبون على ما فعلوه قبل بلوغ الدعوة إليهم ، أو قبل اسلامهم ؛ لأن الإسلام يَجِبُ ما قبله ، كما قال الرسول ﷺ لخالد بن الوليد .

هذا وقد أكد القرآن الكريم أنه لا عقاب ولا حساب إلا بعد أن تقوم الحجة ببعث الرسل الذين يذكرون الناس ويوضحون لهم أقوم السبل ، قال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٥٧) كما أكد القرآن الكريم المسئولية الفردية لعمل الإنسان الانفرادى ، مشيراً إلى أنه لا حساب ولا عقاب بمسأمة من أهله وأقاربه وأصدقائه وجيرانه ، قال تعالى : ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾ (٥٨) .

ولم يكتف القرآن الكريم بتقرير وتأكيّد ضمانات عدم الظلم

(٥٧) الاسراء : ١٥ .

(٥٨) الاسراء : ١٣ - ١٥ .

والاعتداء على أسرة وعشيرة الجاني ، أو أصدقائه وزملائه ، ولكنه ضَمِنَ إلى جانب ذلك - عدم ظلم هذا الجاني نفسه فرداً كان أم هيئة جماعية ، وذلك حينما قرر مبدأ اعلام الناس أو المواطنين بكنه القاعدة القانونية قبل تطبيقها عليهم ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ومبشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾^(٥٩) أى أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه قد أرسل شاهداً على أمته وعلى جميع الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم ، وتبلغ الرسالة هو إعلام بما للإنسان وما عليه تجاه ربه ، وبمستوجبات الثواب والعقاب الدنيوى أو الآخروى ، ومستوجبات الثَّواب والعقاب هى التى تُطلق عليها كلمة (القاعدة القانونية) .

ولا أحد من المسلمين ينكر إعلامه بالقواعد التى بموجبها يتم الثواب أو العقاب طالما أن النبى ﷺ - وهو السراج الوضوء الذى بدَّد الله به ظلمات الضلال - قد بين ذلك بأقواله وأفعاله وتقريراته ، وقال : «تروك فيكم ما إن تمسكتم بها لن تضلوا بعدى أبداً» ، وطالما كان المسلم يتمسك بالقرآن والسنة ، ويتلو القرآن دوماً تلاوة تأمل وتدبر ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ .

ولمَّا كانت الجريمة الجنائية مسئولية فردية لا تتعدى الجاني إلى غيره لأى سبب غير ملاسبات الاشتراك والتواطؤ والتدبير كان لا بد للشرعة الإسلامية من وضع الاعتبار الكافى لموانع المسئولية ، فرفعت أو اسقطت العقوبة فى حال وجود مانع من موانع المسئولية ، مثل : صغر السن . (عدم التكليف) ، الاكراه ، الخطأ ، الجنون ، النسيان ، قال صلوات الله وسلامه عليه : «رفع

(٥٩) الأحزاب : ٤٥ - ٤٧ .

عن أمي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه» .

أبعد هذا يتشدق المتشدقون فيقولون ويتغولون على الإسلام والمسلمين حينما يصفونهم بالوحشية ويصفون الإسلام بالجمود والقسوة ، أما كان حرياً بهم ألا يهرفوا بما لا يعرفوا ، وأما كان الأولى أن يتحدثوا عن الأنظمة الوضعية - في عالمنا الإسلامي - ثورية كانت أم غير ثورية ليبينوا للناس أى نظام كان قريباً من مبادئ العدالة والرحمة التي أرسى قواعدها القرآن الكريم ، وأى نظام أوغل في القسوة والتجنى على الأبرياء والمتهمين ، وأكثر ميلاً إلى الاعتداء على أعراضهم وأعراض ذويهم ، حتى ليخيل للمرء أن كثيراً من مجتمعاتنا قد صارت أقرب إلى مجتمعات الجاهلية الأولى والتي شاع فيها الاعتداء على العرض بطرق مختلفة ، على حين أن الإسلام قد جعل من أول أهدافه حماية الإنسان وصيانة كرامته ، فأسجد له ملائكته ، ومنعه من أن يسجد لغير الواحد القهار ، (وهذا بالنسبة لأبي البشر) ..

أما ذريته فقد شملتهم العناية الالهية بصون كرامتهم أيضاً ، حيث شملهم منع السجود لغير الواحد الأحد ، بل وضعت لهم أطر وضوابط تحببهم مزالق السقوط في فاحشة السجود لغير الله تبارك وتعالى ، أو فاحشة الاعتداء على الأعراض وغيرها ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ .

ثم وضع لفاحشة الاعتداء على الأعراض عقوبتين : عقوبة مادية ، وعقوبة أدبية ، وقد جعل العقوبة المادية علنية جسدية وليست مالية ، قال تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ

منها مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين^(٦٠)

أما العقوبة الأدبية فقد تمثلت في حرمان الزاني والزانية من التزاوج من الأسر المؤمنة الشريفة ، يشير إلى هذا قول الله عز وجل : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾^(٦١)

وما ذاك إلا من أجل صيانة كرامة الإنسان وحماية لبنات المجتمع المسلم من عوامل التصدع والانحيار ، ولا غبن ولا ظلم في هذا على الجاني الزاني ، لأنه أعلم بقاعدة العقوبة قبل تطبيق العقوبة عليه ، ولأنه لا يعاقب حتى تثبت إدانته ثبوتاً قطعياً وليس ظنياً أو راجحاً ، وإلا اعتبر توجيه التهمة إليه اعتداء على عرضه عن طريق القذف ، قال تعالى : ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾^(٦٢) .

إذا كان الزاني قد وضعت له عقوبتان : مادية وأدبية ، فالقاذف بالزنا وضعت له ثلاث عقوبات :

- ١ - أن يجلد ثمانين جلدة .
- ٢ - أن تُردَّ شهادته أبداً .
- ٣ - أن يكون فاسقاً ليس يعدل ، لا عند الله ولا عند الناس^(٦٣) .

(٦٠) النور : ١ - ٢ .

(٦١) النور : ٣ .

(٦٢) النور : ٤ - ٥ .

(٦٣) ابن كثير - مختصر تفسير ابن كثير ٥٨٣/٢ .

(هـ) دعوة إلى الأخوة الإيمانية والوحدة الإنسانية :

هناك حقيقة ربما غابت عن أذهان الذين لم يتدبروا القرآن الكريم ، هي أن القرآن الكريم قد وضع الدعامة الأولى للوحدة الإنسانية والتي ترجع بالناس جميعاً إلى منبع واحد وتضعهم جميعاً في مستوى واحد دون تفاضل بينهم إلا ما قد يكون من تفاوت في العمل أو التقوى ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ .

حيث كان النداء بيا أيها الناس ، «يا بني آدم» التي تكررت في أكثر من موضع في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ وقوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ وقوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وقوله تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رِسَالُكُمْ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾

ومن الثابت أن لهذه النداءات جميعاً دلالات عديدة وهامة ، أبعد هذا يقول المتقولون ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، وقد لاحظ الأستاذ الدكتور رمضان البوطي^(٦٤) جوانب هامة في موضوعات القرآن تؤكد النزعة الإنسانية في القرآن

(٦٤) د . محمد سعيد رمضان البوطي - من روائع القرآن ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

الكرم ، وقد ركزها في الموضوعات التالية :

(أ) العقيدة . (ب) التشريع . (ج) الأخلاق والمبادئ .

وقد تحدث عن كل جانب من هذه الجوانب حديثاً ضافياً وافياً ، نأخذ منه قبسات في جانبى : التشريع ، والأخلاق والمبادئ ، حيث قال عن النزعة الإنسانية في جانب التشريع :

«إذا أُمِعت النظر وجدت قانون كل أمة ودولة أو جماعة من الناس ، إنما يعكس طبيعتها وأعراقها ويتجاوب مع ظروفها ، فشريعة كل أمة إذاً تعبيرٌ عن حاجتها ومتطلباتها فقط ، دون نظر إلى ما وراء حدودها .

غير أن التشريع القرآنى لا نجد فيه أىّ منزع إلى عرق أو طائفة أو جماعة ، وإنما هو ينبثق عن أسس ومبادئ إنسانية مطلقة بحيث تأتى عامة فروعه متطابقة معها في دقة واطراد .

ولنضرب أمثلة لا يضاح هذه الحقيقة :

سورة النساء ، من السور التى تفيض بالأحكام التشريعية المتعلقة بتنظيم الأسرة وحقوق المرأة ، ونظام الحكم ، وتقويم العدالة وضبط حقيقتها .

فانظر كيف بدأت هذه السورة بوضع الركيزة الأساسية لتلك الأحكام كلها ، وكيف لفتت أنظار الذين سينصتون إلى هذه الأحكام التالية ، إذ أن المنطلق إلى تقريرها ووجوب الأخذ بها إنما هو النظر إلى مصلحة الأسرة الإنسانية المطلقة دون التفات إلى الظروف المتنوعة والمختلفة للبيئات والجماعات ، وهذه هى الركيزة الأساسية : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (٦٥) .

(٦٥) د . محمد سعيد رمضان البوطى - من روائع القرآن ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

ثم قال عن النزعة الإنسانية في الأخلاق والمبادئ ما يلي :
« ليس الخلق النبيل في القرآن عبارة عن السلوك الذى ينسجم
مع ما تواضعت عليه البيئة أو الجماعة المعينة من المعايير السلوكية
والخلقية المستحسنة كما هى النظرة لدى عامة الذين بحثوا من عند
أنفسهم في مقومات الفضيلة والأخلاق .

وإنما الأخلاق والفضيلة في القرآن مجموعة الاعتبارات والمناهج
السلوكية التى تتلاءم مع الفطرة الإنسانية الصافية من جانب ،
وتساعد في إرساء قواعد لإسعاد الإنسانية والفرد والجماعة من
جانب آخر ، ومن ثم فأنت لا تجد في هذه المناهج السلوكية قابلية
للاختلاف والتغير ما بين بيئة وأخرى ، لأنها لم تنشأ من أعراف
بيئة ، ولكنها انبثقت عن الفطرة الإنسانية الشاملة .

فن المبادئ الخلقية في القرآن اعتبار الناس كلهم مهما اختلفت
أعراقهم وأنسابهم في مستوى واحد من الكرامة والحرية الإنسانية ،
ولا يتفاضلون بعد ذلك إلا بما يحرز كل منهم من السبق بسعيه
الخاص في ميدان الجهد الإنسانى المفيد المشرف ، قال تعالى ﴿يَا
أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٦٦) ومن المبادئ الخلقية
في القرآن الكريم الزام الأبناء بحسن معاملة الآباء وخفض جناح
اللطف والرحمة لهم مهما كان بين الطرفين من تباعد في الرأى أو
اختلاف في المذهب ، وهو مبدأ إنسانى غير ناظر إلى طبيعة خاصة
أو عرف معين ، يقتضيه ضمان الأسرة الإنسانية التى تتدرج صعودا
من الخلية الأولى في المجتمع وهى الأسرة ..» (٦٧) .

(٦٦) الحجرات : ١٣ .
(٦٧) د . محمد سعيد رمضان البوطى - من روائع القرآن ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

خاتمة

حاجتنا إلى تعميق العقيدة

١ - تعميق العقيدة يرأب الصدع ويدعم وحدة الأمة :

هل الدعوة في هذا الزمان بحاجة ماسة إلى تنظير وتصنيف لأفكار وآراء ؟ أم هي بحاجة إلى العمل الدؤوب في مجال تعميق العقيدة وتركيزها في النفوس ؟

أحسب أن الآراء قد كثرت وانتشرت في بيئاتنا الإسلامية وبين العاملين في حقل الدعوة إلى الله على مختلف مستوياتهم ، في الوقت الذي بدأت فيه العقيدة تهتز عند كثير من شبابنا وبعض شيوخنا ، بل أخذت تتناقص وتتوارى في كثير من البلدان الإسلامية . ومن ثم أقول لا قيمة للرأى أو الفكر ما لم تدعمه العقيدة ، وقلما تؤتي أمة من نقص في الرأى أو الفكر ، ولكن كثرة ما تؤتي من ضعف في العقيدة ، وكثرة ما تؤتي من كثرة الآراء المتضاربة ، أو غير المتآزرة ..

وأعتقد أن الآراء - في معظم بيئاتنا الإسلامية - قد كثرت وتضاربت ، والعقيدة اهتزت وتناقصت ، ولا أعنى بالعقيدة هنا مجرد الإيمان الظاهري ، ولكن عنية الإيمان المتعمق في النفس والمترجم بالعمل ، عبر الصدق في القول والعمل ، مع النفس والغير ، وعبر الأمانة في الدين والمال والعرض ، مع النفس والغير ، وعبر كل أنواع العمل الصالح ...

فهذا هو الإيمان الحق ، وهو الذى ذكره المولى عز وجل في القرآن الكريم ونعته بالصدق حيث قال : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَدُّوا أَنْ تُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ

تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفورٌ رحيمٌ ،
إنَّ المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم
وأ أنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون» (١) .

حيث قصرت الآية المؤمنين حقاً على من توفرت لديهم
مواصفات معينة هي : الإيمان بالله ورسوله ، وعدم الارتياب ،
الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، ثم أجملت ذلك كله في
الصدق ، مع ملاحظة أن الآية لم تخبر بهذا الصدق إخباراً عادياً ،
إنما أكدته بضمير الفصل : « أولئك هم الصادقون » .

الصدق إذن هو الفارق الحقيقي بين الإيمان والنفاق ، الصدق
في مواجهة النفس ومواجهة الواقع مهما كان مريراً أليماً ، وبالطبع لن
تكون مثل هذه المواجهات إلا من صاحب عقيدة قوية متأصلة ، إذ
من العقيدة المتأصلة ينبعث نورٌ باطنيٌ فيضيء جوانب النفس
الإنسانية ويبعث فيها القوة والحياة ، ومن ثم يستعذب صاحبها
العذاب ويستصغر العظام ، وبهذا يصبح أليماً صامداً صابراً ، ينتصر
على وسوسة الوسواس الخناس ، ويغلب نفسه الأماراة بالسوء ،
ويبقى مع عقيدته كالطود الأشم ، لا يتحول عنها مهما حوَّصر أو
ضُيق عليه .

وقد ضرب لنا الرسول ﷺ أروع أمثلة في هذا الصدد في
مواقف عديدة تزرع بها سيرته العطرة ، نذكر منها قوله ﷺ :
« والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أدع
هذا الأمر الذي جئت به ما تركته » ولا نود أن نتبع جميع مواقف
الرسول ﷺ في هذا الصدد ، فذلك ليس من موضوع هذا

(١) الحجرات : ١٤ - ١٥ .

البحث ، ومن ثم نشير إلى أن سيرة رسولنا ﷺ كانت تجربة غنيّة بأحداثها ، زاخرة بدلالاتها ، متنوعة بمعطياتها ،^(٢) ويجب أن نستمد منها النور لدرينا والأمل لحياتنا ، لا سيما في مجال تحمّل المكاره والصّبر على الشدائد ، وتحمّل أذى المؤذنين في سبيل العقيدة بكياسة وفطانة ، لا تحمّل جزع وفزع ، أو خنوع واستكانة ، وقد عنى القرآن الكريم بتعميق العقيدة وتركيزها ، مفرداً لذلك سوراً بأكملها من طوال السور ، مثل سورة الأنعام ، ومن قصار السور ، مثل سورتي الاخلاص والكافرون ، وغيرهما من السور التي اشتملت على آيات كانت تستهدف تعميق العقيدة وتأصيلها في النفوس ، بغية إصلاح النفوس ذاتها ، قال تعالى : ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون﴾^(٣) وقال : ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ماء آتوا وقلوبهم وجلة إنهم إلى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾^(٤) وقال : ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾^(٥) هذه الآيات - في مجملها تدعو إلى الإيمان والتوحيد الخالص ، وتشير إلى أن الإيمان بالآخرة يجعل المؤمن يتحمّل أو يقوى على تحمّل المكاره ومغالبة الشدائد مضحياً بماله ونفسه في سبيل الله ، وفي سبيل الحق ، دون اكتراث لما

(٢) انظر :

١ - سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم - محمد عزة دروزه .

٢ - تهذيب سيرة ابن هشام - عبدالسلام هارون .

(٣) النحل : ٢٢ .

(٤) المؤمنون : ٥٧ - ٦١ .

(٥) المؤمنون : ٧٤ .

يحدث له في الدنيا ، وذلك إيماناً منه بأن الدنيا زائلة لا محالة ،
طال أو لم يطل البقاء فيها ، وأنه سيلقى ربه وسيجزيه الجزاء الأوفى ،
وقد تأكد هذا الجزاء بقول الله عز وجل :

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَبَ
وَتَوَلَّى ، وَسِجْنُهَا الْأَتَقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ
مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾^(٦)
نجد في هذه الآيات صورتين متعاكستين ، وهما معا تساعدان على
تصحيح العقيدة وتثبيتها في النفس ، إن كانت النفس خالية منها ،
أو تعميقها وتركيزها في نفوس المؤمنين بعقيدة الإسلام لله تبارك
وتعالى .

الصورة الأولى هي صورة أشقى الأشقياء في عباد الله ، ترى من
يكون أشقى أشقياء عباد الله ؟ هو كل من كذَّب وأعرض عن دعوة
التوحيد ؛ إذ يكون بذلك قد أعرض وتولى عن الهدى ، وعن
دعوة الله إلى الهداية .

الصورة الثانية صورة الأسعد بين عباد الله ، ترى من يكون
هذا الأسعد ؟ هو - كما أخبرت السورة - الأتقى الذي يؤتى ماله
تطهيراً وابتغاءً وجه ربه الأعلى : «هو التقي النقيُّ المبالغ في اجتناب
الشرك والمعاصي ، ثم فسره تعالى بقوله : ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ
يَتَزَكَّى﴾ أي الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليزكى نفسه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ
عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ أي وليس لأحد عنده نعمة حتى يكافئه
عليها ، وإنما لوجه الله ، قال المفسرون : نزلت الآيات في حق أبي
بكر الصديق حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله ، فقال
المشركون : إنما فعل ذلك لِيَدِّ كَانَتْ لَهُ عِنْدَهُ فَتَزَلَتْ ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ

(٦) الليل : ١٤ - ٢١ .

وجه ربّه الأعلى ﴿﴾ أى ليس له غاية إلا مرضاة الله ﴿﴾ ولسوف يرضى ﴿﴾ أى ولسوف يعطيه الله فى الآخرة ما يرضيه وهو وعدٌ كريم من رب رحيم (٧) .

هذا الاتقى الذى وعد بالنعيم المقيم فى دار النعيم هو واحد من أصحاب العقيدة الصحيحة القوية المتأصلة ، وهو واحد من أولئك الذين وصفتهم الآيات ٥٧ - ٦١ من سورة «المؤمنين» ، هو كل مؤمن انطبقت عليه أوصاف آيات سورة المؤمنون أو أوصاف سورة «الليل» ، وليس وفقاً على أنى بكر الصديق وحده ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ ذلك لأن كل من استحق صفة «اتقى» فهو جامع - دون رب - للصفات الأربع الواردة فى سورة (المؤمنون) أو هو داخل - دون رب - ضمن من وصفوا بأنهم : من جلال الله وعظمته خائفون ، ومن خوف عذابه حذرون ، وأنهم يصدقون بآيات الله القرآنية وآياته الكونية ، وهى الدلائل والبراهين الدالة على وجوده ، وأنهم لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه ، قال الإمام الفخر : (وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفى الشريك فإن ذلك داخل فى الآية السابقة ، بل المراد منه نفى الشرك الخفى وذلك بأن يخلص فى العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه» وأنهم يتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم ، وأنهم لخوفهم أن يكونوا قد قصّروا فى القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة ، ولاعتقادهم أنهم سيجعون إلى ربهم للحساب ، روى أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت : ﴿والذين يؤتون

(٧) محمد على الصابونى - صفوة التفاسير ج ٣ ص ٥٧٠ .

ماءاتوا وقلوبهم وجلة) أهو الذى يزنى ، ويسرق ، ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل ؟ فقال لها : (لا يا بنت الصديق ولكنه الذى يُصلى ، ويصوم ، ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل) أولئك المتصِفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين يسابقون فى الطاعات لنيل أعلى الدرجات (٨) .

لم يَنْحُ أى من الموصوفين بتلك الصفات ذلك المنحى إلا لأن العقيدة الإيمانية قد تأصلت فى نفوسهم ، فأشرقت وشرَّبتْ إلى الجزء الأوفى الذى يرخص فى سبيله كل غالٍ ، وهون كل خطب . تأصيل العقيدة بهذا المعنى أمرٌ ضرورىٌ بالنسبة لكل مؤمنٍ ، ولكنه أكثر ضرورةً بالنسبة للداعية المسلم ، إذ حينما تتأصل العقيدة فى نفس الداعية وتتفاعل مع مشاعره ووجدانه يصبح ذا صدر رحب ، واسع يعينه على تقبُّل الفهم المغاير لفهمه بغية مناقشته بموضوعية وأمانة وتجرد .

وتعتقد أنه لا ضرر من الاختلاف فى الافهام طالما كان ذلك الاختلاف محكوماً بأسس وضوابط ، ولا يعتبر هذا الاختلاف من التفرُّق المنهى عنه طالما كان مرتكزاً على منهجية وموضوعية ، وطالما كان متعلقاً بالمسائل التى وكل أمرها لاجتهاد المجتهدين عن طريق النظر فى الأدلة الشرعية والمصالح المرسلة ، أو مراعاة ما ينفع الناس دون خروج على قاعدة الحلال والحرام فى شريعة الإسلام ، ولابن تيمية رسالة قيمة فى هذا الصدد «رفع الملام عن الأئمة الاعلام» . ومن ثم نشير إلى أن التفرُّق المنهى عنه إنما يكون فى الاختلاف فى التوحيد ، وصور العبادات ، وعقيدة البعث والجزاء ، وجعل أساس التشريع كتاب الله ، فهذه مسائل لا يجوز الاختلاف فيها ،

(٨) صفوة التفاسير (بتصرف) ج ١ ص ٣١٢ - ٣١٣ .

لأنها مقررة ثابتة ، أو لأنها معلومة من الدين بالضرورة .
وينبغي ألا يفهم من هذا أن المسائل الاجتهادية يجوز التفرق فيها ، كلا ثم كلا ، ولكن يجوز فيها الاجتهاد الذي قد يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف في الفهم ، وكلما كانت العقيدة قوية متأصلة ، والنفوس مشرقة وضاءة ومشربة إلى الجزاء الأوفى كلما كان الاختلاف في الفهم عاملاً من عوامل إثراء الفكر وتصحيح المسار .

أما حينما تضمحل العقيدة وتظلم النفوس يصبح الاختلاف في الفهم سبيلاً للتناحر والتدابير ، وذلك تلبية لروح العصبية المذهبية ، أو استجابة لعاطفة الغرور والاعجاب بالنفس في لحظة من لحظات الضعف الإنساني .

هذا وقد كاد الاختلاف في الفهم للمسائل الاجتهادية الدينية والدنيوية يفتت في عضد المسلمين في شتى بقاعهم ، إلى جانب الشطحات التي وقع فيها بعضهم بالخوض في مسائل لا يجوز الخوض فيها ، لأنها ليست من المسائل الاجتهادية ، ونعتقد أن مرد ذلك كله إلى ضعف العقيدة ، وعدم الاستفادة من توجيهات القرآن الكريم ، ومن دروس التاريخ وعبره وعظاته ، تلك العظات التي ذكرها القرآن الكريم في مواضع شتى ، من ذلك قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ لم يلتفت المتدابرون المتناحرون من المسلمين إلى ما تشير إليه هذه الآية كي يتقوا الهلاك الذي أصاب من كانوا مقصودين بالآية الكريمة ، وهم المشركون الذين كانت تمزقهم أوهام الجاهلية وتقاليدها شيعاً وأحزاباً ، ثم اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية ملأاً ونحلاً .

نعم لم يلتفت المتدبرون المتناحرون من المسلمين إلى مثل هذا التسجيل والتوجيه القرآني ، فكان ما كان ، حيث أصبحوا شيعاً وأحزاباً ، ومعسكرات وجماعات تتنافر ولا تتعاون ، وتتعارك ولا تتعاضد ، بسبب تعميق جوانب الخلاف في كل شيء ، على حين أن هناك أموراً لا يجب الاختلاف فيها قط ، حيث لا مجال للاجتهاد فيها مثل :

١ - ما كان قطعي الدلالة كالدليل القرآني أو السنة المتواترة على وجوب : الصلاة ، الزكاة ، الحج ، أو على تحريم كل من : الخمر ، الزنا ، السرقة - الخ .

٢ - ما هو معلوم من الدين بالضرورة كعدد الركعات في الصلوات الخمس .

٣ - ما أجمع عليه مجتهدو الأمة الإسلامية في ضوء ضوابط الشريعة وأصولها العامة .

وما عدا ذلك فهو مجال رحب للاجتهاد ، وعندما يخطئ أحد المجتهدين لا يعتبر خطؤه خروجاً على الملة أو سبباً في القطيعة والخصام ولكن يثاب على عمله طالما كان ثمرة اجتهاد مشروع ، لأن عمله عندئذ يندرج في باب الخطأ الذي لا يعاقب عليه الإنسان ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ﴾ وقال الرسول ﷺ : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه» .

فالناس نصيب على أنفسهم ، ونفترق ولا نجمع ، بسبب اختلاف في مسائل تتعدد فيها وجهات النظر ، ويعذر فيها المخطئ ، نسأل الله أن يلهمنا الرشد والصواب ، وأن يهنيء للأمة الإسلامية من أمرها رشداً .

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف .
- ٢ - ابن تيمية - الفتاوى - المجلد الثانى والخامس .
- ٣ - ابن تيمية - الاكليل فى المتشابه والتنزيل - المطبعة العامرة الشرقية القاهرة سنة ١٣٢٣ .
- ٤ - ابن تيمية - مقدمة فى أصول التفسير - دار القرآن - الكويت .
- ٥ - ابن تيمية - منهاج السنة النبوية - المطبعة الأميرية - القاهرة .
- ٦ - ابن حجر العسقلانى - الاصابة فى تمييز الصحابة - المطبعة الشرقية القاهرة ١٩٠٧ م .
- ٧ - ابن حجر العسقلانى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - الهند ١٣٤٨ هـ .

- ٨ - ابن خلكان - وفیات الأعیان - المطبعة الأمیریة - القاهرة
١٢٩٩هـ .
- ٩ - ابن قتیبہ - تأویل مشکل القرآن - دار أحياء الكتب
العربیة - القاهرة ١٩٥٤م .
- ١٠ - ابن قتیبہ - تفسیر غریب القرآن - دار احياء الكتب العربیة -
القاهرة ١٩٥٨م .
- ١١ - ابن كثير - مختصر تفسير ابن كثير - للشيخ محمد علي
الصابوني - ط دار القرآن الكريم - بيروت .
- ١٢ - ابن هشام - سيرة ابن هشام - تهذيب عبدالسلام هارون .
- ١٣ - أبوحامد الغزالي - جواهر القرآن - ط ثانية - مطبعة الرحمانية
بمصر سنة ١٩٣٣م .
- ١٤ - أحمد أمين - فجر الإسلام - ط - لجنة التأليف والترجمة -
القاهرة ١٩٣٥م .
- ١٥ - أحمد أمين - ضحى الإسلام - ط - لجنة التأليف والترجمة -
القاهرة ١٩٣٣م .
- ١٦ - البهي الخولي - تذكرة الدعاة .
- ١٧ - الترمذی - الجامع الصحيح أو سنن الترمذی - مطبعة البابی
الحلبی ١٩٣٧م .
- ١٨ - جار الله الزنجشیری - الكشف - ط محمد مصطفی - القاهرة
١٣٠٨هـ .
- ١٩ - حسن البنا - مقاصد القرآن الكريم - ط دار الشهاب -
١٩٧٩م .
- ٢٠ - سيد قطب - في ظلال القرآن - ط - دار الشروق - بيروت
١٩٨٢م .

- ٢١ - سيد قطب - كتب وشخصيات ط - دار الشروق - بيروت
١٩٨٢ م .
- ٢٢ - السيوطي - معترك الاقران في إعجاز القرآن - دار الفكر
العربي ١٩٦٩ م .
- ٢٣ - صبحي الصالح - مباحث في علوم القرآن - ط الجامعة
السورية - دمشق ١٩٥٨ م .
- ٢٤ - صالح بن إبراهيم البليهد - الهدى والبيان في أسماء القرآن - ط
الرياض .
- ٢٥ - عبدالله كنون - الرد القرآني على كتيب : هل يمكن الاعتقاد
بالقرآن .
- ٢٦ - عبد الصبور شاهين - تاريخ القرآن - دار الكاتب العربي -
القاهرة ١٩٦٦ م .
- ٢٧ - علي الطنطاوي - تعريف عام بدين الاسلام - ط مؤسسة
الرسالة بيروت الطبعة التاسعة .
- ٢٨ - فخر الدين الرازي - التفسير الكبير أو مقاتيح الغيب - ط
المطبعة البهية - القاهرة ١٩٣٨ م .
- ٢٩ - فيليب دي طرازي - مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق
(مج) ١٩٤٤/١٩ م .
- ٣٠ - القرطبي - تفسير القرطبي .
- ٣١ - محمد بن بهادر الزركشي - البرهان في علوم القرآن - دار
احياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٣٢ - محمد الباقلاني - اعجاز القرآن - ط دار المعارف بمصر .
- ٣٣ - محمد البيلاوي - التعريف بالنبي والقرآن الشريف - ط دار
الكتب المصرية سنة ١٩٢٧ م .

- ٣٤ - محمد بن اسماعيل البخارى - صحيح البخارى - ط بولاق - القاهرة ١٢٩٦هـ .
- ٣٥ - محمد جمال الدين القاسمى - محاسن التأويل ط - دار الفكر - بيروت ١٩٧٨ م .
- ٣٦ - محمد خلف الله أحمد - الفن القصصى فى القرآن الكريم - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
- ٣٧ - محمد الخضر حسين - بلاغة القرآن - المطبعة التعاونية - دمشق .
- ٣٨ - محمد رشيد رضا - الوحي المحمدى - مطبعة المنار .
- ٣٩ - محمد رشيد رضا - تفسير المنار - مطبعة المنار .
- ٤٠ - محمد سعيد رمضان البوطى - من روائع القرآن - الطبعة الخامسة ١٩٧٧ م .
- ٤١ - محمد شديد - منهج القرآن فى التربية - مكتبة الآداب - القاهرة .
- ٤٢ - محمد عزة دروزة - القرآن والملاحدون - دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ م .
- ٤٣ - محمد عبدالله دراز - النبأ العظيم - مطبعة السعادة - القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٤٤ - محمد على الأشيقرى - لمحات من تاريخ القرآن - مطبعة النعمان - كربلاء .
- ٤٥ - محمد على الصابونى - صفوة التفاسير - ط دار القرآن الكريم - بيروت ١٩٨١ م .
- ٤٦ - محمد على الصابونى - التبيان فى علوم القرآن - ط مؤسسة مناهل العرفان بيروت سنة ١٩٨١ م .

- ٤٧ - محمد كامل حسن - القرآن والقصة الحديثة - دار البحوث العلمية - بيروت ١٩٧٠ م .
- ٤٨ - محمود الألوسي - روح المعاني - ط المطابع المنيرية - الطبعة الثانية - القاهرة ١٣٤٥ هـ .
- ٤٩ - مصطفى صادق الرافعي - اعجاز القرآن والبلاغة النبوية - المكتبة التجارية القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٥٠ - مصطفى محمود - القرآن (محاولة لفهم عصري للقرآن) دار الشروق بيروت ١٩٧٠ م .
- ٥١ - مصطفى المراغي - الدروس الدينية - مطبعة الأزهر سنة ١٣٥٦ هـ .
- ٥٢ - يعقوب يوسف - لفتات علمية في القرآن - دار العباد بيروت ١٩٥٩ م .
- ٥٣ - ياقوت الحمودي - معجم البلدان .

الفهرست

الموضوعات	الصفحة
١- إهداء ودعاء	٣
٢- مقدمة	٥
٣- تمهيد	١١
٤- الفصل الأول :	
التعبد بتلاوة القرآن الكريم	٢٩
٥- الفصل الثاني :	
القرآن الكريم وهدايته للبشرية	٤٥
٦- الفصل الثالث :	
الدعوة إلى الله بناء للإنسان بناءً متكاملًا	٧٥
٧- الفصل الرابع :	
منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى الله	٨٩
٨- خاتمة : حاجتنا إلى تعميق العقيدة	١٣٥
٩- المصادر والمراجع	١٤٣

صدر من هذه السلسلة

- ١ — تأملات في سورة الفاتحة .. الدكتور حسن باجودة
- ٢ — الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه .. الأستاذ احمد محمد جمال
- ٣ — الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين .. الأستاذ نذير حمدان
- ٤ — الاسلام الفاتح .. الدكتور حسين مؤنس
- ٥ — وسائل مقاومة الغزو الفكري .. الدكتور حسان محمد مرزوق
- ٦ — السيرة النبوية في القرآن .. الدكتور عبد الصبور مرزوق
- ٧ — التخطيط للدعوة الاسلامية .. الدكتور محمد علي جريشة
- ٨ — صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية .. الدكتور احمد السيد دراج
- ٩ — التوعية الشاملة في الحج .. الأستاذ عبد الله بوقس
- ١٠ — الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره .. الدكتور عباس حسن محمد
- ١١ — لمحات نفسية في القرآن الكريم .. د. عبد الحميد محمد الهاشمي
- ١٢ — السنة في مواجهة الأباطيل .. الأستاذ محمد طاهر حكيم
- ١٣ — مولود على الفطرة .. الأستاذ حسين احمد حسون
- ١٤ — دور المسجد في الاسلام .. الأستاذ محمد علي مختار
- ١٥ — تاريخ القرآن الكريم .. الدكتور محمد سالم محيسن
- ١٦ — البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام .. الأستاذ محمد محمود فرغلي
- ١٧ — حقوق المرأة في الاسلام .. الدكتور محمد الصادق عفيفي
- ١٨ — القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١] .. الأستاذ احمد محمد جمال
- ١٩ — القراءات أحكامها ومصادرها .. الدكتور شعيبان محمد اسماعيل
- ٢٠ — المعاملات في الشريعة الاسلامية .. الدكتور عبد الستار السعيد
- ٢١ — الزكاة فلسفتها وأحكامها .. الدكتور علي محمد العماري
- ٢٢ — حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم .. الدكتور أبو اليزيد العجمي
- ٢٣ — الاقليات المسلمة في آسيا وأستراليا .. الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- ٢٤ — الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر .. الدكتور عدنان محمد وزان
- ٢٥ — الاسلام والحركات الهدامة .. معالي عبد الحميد حمودة

٢٦	تربية النشء في ظل الاسلام	الدكتور محمد محمود عمارة
٢٧	مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي	الدكتور محمد شوقي الفنجري
٢٨	وحي الله -	الدكتور حسن ضياء الدين عتر
٢٩	حقوق الانسان وواجباته في القرآن	حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠	المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	الأستاذ محمد عمر القصار
٣١	القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٣٢	الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج	الدكتور السيد رزق الطويل
٣٣	الاعلام في المجتمع الاسلامي	الأستاذ حامد عبد الواحد
٣٤	الالتزام الديني منهج وسط	عبد الرحمن حسن جبنة الميذاني
٣٥	التربية النفسية في المنهج الاسلامي	الدكتور حسن الشرقاوي
٣٦	الاسلام والعلاقات الدولية	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٣٧	العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية	اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨	معاني الأخوة في الاسلام ومقاصدها	الدكتور محمود محمد بابلي
٣٩	النهج الحديث في مختصر علوم الحديث	الدكتور علي محمد نصر
٤٠	من التراث الاقتصادي للمسلمين	الدكتور محمد رفعت العوضي
٤١	المفاهيم الاقتصادية في الاسلام	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢	الأقليات المسلمة في أفريقيا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٣	الأقليات المسلمة في أوروبا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٤	الأقليات المسلمة في الأمريكتين	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٥	الطريق إلى النصر	الأستاذ محمد عبد الله فودة
٤٦	الاسلام دعوة حق	الدكتور السيد رزق الطويل
٤٧	الاسلام والنظر في آيات الله الكونية	د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨	دحض مفتريات	د. البدر اوي عبد الوهاب زهران
٤٩	المجاهدون في فطاني	الأستاذ محمد ضياء شهاب
٥٠	معجزة خلق الانسان	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١	مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية	الدكتور سيد عبد الحميد مرسي
٥٢	ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي	الأستاذ أنور الجندي
٥٣	الشورى سلوك والتزام	الدكتور محمد أحمد البابلي
٥٤	الصبر في ضوء الكتاب والسنة	أسماء عمر فدعق
٥٥	مدخل إلى تحصين الأمة	الدكتور أحمد محمد الخراط

الاستاذ أحمد محمد جمال	٥٦ - القرآن كتاب أحكمت آياته [٣]
الشيخ عبد الرحمن خلف	٥٧ - كيف تكون خطيباً
الشيخ حسن خالد	٥٨ - الزواج بغير المسلمين
محمد قطب عبد العال	٥٩ - نظرات في قصص القرآن
الدكتور السيد رزق الطويل	٦٠ - اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات
الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي	٦١ - بين علم آدم والعلم الحديث
الدكتور محمد الصادق عفيفي	٦٢ - المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان
الدكتور رفعت العوضي	٦٣ - من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]
الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة	٦٤ - تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد
الشهيد أحمد سامي عبد الله	٦٥ - لماذا وكيف أسلمت [١]
الأستاذ عبد الغفور عطار	٦٦ - أصلح الأديان عقيدة وشريعة
الأستاذ أحمد المخزنجي	٦٧ - العدل والتسامح الاسلامي
الأستاذ أحمد محمد جمال	٦٨ - القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]
محمد رجاء حنفي عبد المتجلي	٦٩ - الحريات والحقوق الاسلامية
الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان	٧٠ - الانسان الروح والعقل والنفس
الدكتور شوقي بشير	٧١ - كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية
الشيخ محمد سويد	٧٢ - الاسلام وغزو الفضاء
الدكتورة عصمة الدين كركر	٧٣ - تأملات قرآنية
الأستاذ أبو اسلام أحمد عبد الله	٧٤ - الماسونية سرطان الأمم
الأستاذ سعد صادق محمد	٧٥ - المرأة بين الجاهلية والاسلام
الدكتور علي محمد نصر	٧٦ - استخلاف آدم عليه السلام
محمد قطب عبد العال	٧٧ - نظرات في قصص القرآن [٢]
الشهيد أحمد سامي عبد الله	٧٨ - لماذا وكيف أسلمت [٢]
الأستاذ سراج محمد وزان	٧٩ - كيف تُدرّس القرآن لأبنائنا
الشيخ أبو الحسن الندوي	٨٠ - الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ
الأستاذ عيسى العرباوي	٨١ - كيف بدأ الخلق
الأستاذ أحمد محمد جمال	٨٢ - خطوات على طريق الدعوة
الأستاذ صالح محمد جمال	٨٣ - المرأة المسلمة بين نظرتين
محمد رجاء حنفي عبد المتجلي	٨٤ - المبادئ الاجتماعية في الاسلام
د. ابراهيم حمدان علي	٨٥ - التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام
د. عبد الله محمد سعيد	٨٦ - الحقوق المتقابلة

٨٧ — من حديث القرآن عن الانسان ----- د. علي محمد حسن العمري

طبع مطابع رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

المؤلف .. في سطور

- د. محمد الحسين عبد القادر أحمد أبو سم
- من مواليد محافظة شمال دارفور بالسودان عام ١٩٤٠م
- حاصل على « دبلوم » التربية و علم النفس - جامعة عين شمس عام ١٩٦٤م .
- حاصل على درجة « الماجستير » فى الأدب و النقد - من جامعة الأزهر بتقدير ممتاز - عام ١٩٦٧ .
- حاصل على درجة « الدكتوراة » فى الأدب و النقد - من جامعة الأزهر بتقدير « ممتاز » مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٥م .
- عضو هيئة التدريس بجامعة أم درمان الإسلامية .
- عميد الدراسات الجامعية للطالبات بجامعة أم درمان الإسلامية « سابقا » .
- عضو مجلس الدراسات الانسانية بالمجلس القومى للتعليم العالى بالسودان « سابقا » .
- أستاذ مشارك « منتدب » بجامعة أم القرى كلية اللغة العربية « حاليا » .
- له بحوث و مقالات منشورة فى : المجلات الحينية ، والأدبية ، والملاحق الثقافية للصحف اليومية .
- له مؤلفات تحت الطبع .